

اقرأ

أحمد الشناوي

التبوء بالغيب

قديماً وحديثاً



دار المعارف بمصر

التَّائِبُ بِالْغَيْبِ
قَدِيمًا وَحَدِيثًا

أحمد السنناري

التنبؤ بالغيب

قديمنا وحديثنا

٢٠١ اقرا

دار المعارف بمصر

الطبعة الأولى - ٢٠١ - سبتمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسبيرو - القاهرة

الفصل الأول

ما هو التنبؤ بالغيب

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ » .

والغيب هو ما لا نعتمد في إدراكه على إحدى الحواس
فلا يدخل في دائرته استنباط النتائج من مقدماتها ومعرفة
المسببات من أسبابها بطريق الاستدلال ، وقياس ما غاب بما حضر ،
كعلمنا شفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجعاً ،
وكثرة ثمار الأرض إذا رأينا النبات نامياً ، وسقوط أمة إذا
ألفينا أبناءها متفرقي القلوب منغمسين في اللهو والترف منصرفين
عن الجهد والعمل . كل ذلك وما أشبهه خارج عن دائرة علم
الغيب أو التنبؤ بالغيب الذي هو موضوع هذا الكتيب .
والإنسان مولع منذ أن وجد على ظهر الأرض إلى اكتشاف
الغيب ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث . وقد ظهر من بني
البشر في كل عصر من العصور أناس ادعوا أن لهم القدرة على
التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل ، وقد خلعت عليهم هذه القدرة

مهابة واحتراماً وتبجيلاً بين الناس ، بل لقد أدنتهم هذه المقدرة من مراتب الأنبياء وسلكتهم في عداد أولياء الله الصالحين .

ولم يقف هذا الميل أو الادعاء بالقدرة على كشف الغيب عند حد الأفراد بل تعداهم إلى الأمم والشعوب ؛ فقديماً برع الآشوريون في التنبؤ بالغيب وذلك عن طريق ملاحظة الكواكب والأجرام السماوية في مسالكها وقد مكنتهم سمائهم الصافية من مراقبة حركاتها وقالوا إن لهذه الحركات دلالات على حظوظ الناس ومصائرهم . وقد أخذ الكلدانيون هذا العلم عنهم وواصلوا قراءة صفحة السماء ومشاهدة النجوم في تحركاتها وأقاموا على ذلك كله علماً يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس وعرفة المصير الذي قدر لهم . ولقد كان للمصريين القدماء نصيب وافر من هذا العلم ورثوه عن أسلافهم خلال دأخ سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

أما الإغريق فكانوا لا يقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة الذين كانوا يدعون التنبؤ بالغيب . وكان علم الكهانة شائعاً عند العرب أيام الجاهلية إذ كانوا يطلقون لفظة كاهن على كل من ادعى علم الغيب ، أو تنبأ بشيء قبل وقوعه . وقد نبغ فيهم كثيرون من الكهان مثل

شق بن أنمار، وسطيح بن مازن، وطريفة الكاهنة، وزبراء الكاهنة وغيرهم .

وقد ورد في الكتاب المقدس الشيء الكثير من التنبؤات على ألسنة بعض الأنبياء من أمثال إرميا وحزقييل . وقام نفر من العلماء يدرسون هرم الجيزة الأكبر من حيث دلالاته على بعض التنبؤات ويؤكدون بالأدلة الحسابية الملموسة أن بعضها قد تحقق في العصر الحاضر .

وكان التنبؤ بالغيب من الأمور الشائعة في العصور الوسطى وظهر في تلك العصور عرافون كثيرون تنبأوا بأمور كثيرة تحقق الكثير منها ، ولعل أشهر هؤلاء العرافين هو نستراداموس Nostradamus أحد علماء العصور الوسطى ، وقد عاش في القرن السادس عشر وكانت له تنبؤات كثيرة تحقق منها الجزء الأكبر . وقد شابت تنبؤاته الشيء الكثير من الغموض بسبب التواء أساورها ، فقد كتب هذا العالم تنبؤاته في شكل أشعار رمزية لها دلالاتها الخاصة نذكر منها على سبيل المثال النبوءة التالية :

« سوف يغلب الأسد الصغير الأسد الكبير في ساحة التزال بعد مبارزة واحدة . سوف يطعن ناظره الموضوعين في قفص من ذهب ، وبعدها يموت الأسد الكبير ميتة شنيعة » .

كان نستراداموس هذا معاصراً للملك هنرى الثانى ملك فرنسا . وفى يولييه من عام ١٥٥٩ احتفل الملك هنرى بزواج أخته مرجريت من دوق ساقوى . وكان من بين برنامج الاحتفال إقامة مسابقة بالطعن بالرماح . وكان هنرى ماهراً فى اللعب بالرمح لذلك دعا أحد ضيوفه من الشبان وهو إيرل مونتجومرى من الحرس الاسكتلندى لمنازلته بالرماح . وقد اعتذر هذا الشاب عن هذا الشرف المحوط بالأخطار ولكن الملك أصر على ذلك . وفى خلال النزال اخترق رمح مونتجومرى خوذة خصمه الذهبية ودخل الرمح فى عين الملك اليمنى . وقد مات الملك هنرى الثانى بعد ذلك ميتة شنيعة مؤلمة .

وتنبأ وليم ليللى William Lilly المنجم الإنجليزى فى عام ١٦٥١ بالطاعون الذى اجتاح مدينة لندن عام ١٦٦٥ وبالحريق الذى دمرها عام ١٦٦٦ .

وكان تنبؤه من الدقة بحيث أنه تألفت بعد حريق لندن لجنة برلمانية لسؤال ليللى هذا عما إذا كان تنبؤه هذا مستمداً من معلومات أخرى غير ما أنبأته به النجوم والكواكب وذلك خشية أن يكون ذلك الحريق قد شب نتيجة مؤامرة من المؤامرات .

وبير Peare متنبئ إنجليزى آخر تنبأ فى عام ١٨٦٨ بأن

الملك جورج - وكان في ذلك الوقت في الثانية من عمره ، وله من الإخوة ما يكبرونه سنّاً - سوف يصبح ملكاً لإنجلترا تحت اسم جورج الخامس ، وقد تحققت هذه النبوءة .

وتنبأ أحد الإنجليز في عام ١٨٨٦ بأن عام ١٩١٧ سوف يكون على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإسرائيل وبريطانيا . والمعروف أن اللورد اللبى قد دخل فلسطين عام ١٩١٧ واستولى على القدس وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطانى بعد أن ظلت تحت الحكم الإسلامى طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان وقد مهد ذلك لظهور دولة إسرائيل الحديثة .

وقد ظهرت قبل عام ١٩١٤ نبوءات كثيرة عن الأحداث الجسام التى حلت بأوروبا فيما بين عامى ١٩١٤ و ١٩٢٠ وهى الفترة التى نشبت فيها الحرب العالمية الأولى . فقد تنبأ العراف ويتزر Weitzer فى أوائل القرن الحالى بأن السنوات الإحدى عشر من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٠ سوف تكون ذات شأن خطير بالنسبة للقارة الأوربية ، كما تنبأ معظم العرافين والمنجمين بدون استثناء بحرب ضروس تشنها ألمانيا خلال الأعوام من ١٩١٣ إلى ١٩١٦ . وفى عام ١٩٠٥ أى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات تقريباً نشرت مدام تيبس Thebes العافة الفرنسية المشهورة هذه

الكلمات فى التقويم السنوى الفرنسى :

« إن مستقبل بلجيكا محزن مظلم . إن هذه الدولة الصغيرة توحى بالرفاهية والسلام ولكنى أكرر كلمتى السابقة ، أن هذه البلاد سوف تشعل النيران فى أوربا بأسرها . »

ونحن نذكر جميعاً كيف أغارت ألمانيا على بلجيكا فى الحرب العالمية الأولى على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء التى كانت معقودة بينها وبين تلك الدولة ، الأمر الذى أدى إلى نعت هذه المعاهدة بأنها « قصاصة ورق » وكان ذلك هو السبب الذى دفع إنجلترا إلى دخول الحرب العالمية الأولى .

وذكرت مدام تيبس فى طبعة سنة ١٩١٣ من ذلك التقويم ذاته ما يلى :

« لى أرى بين أيدي كبار الإيطاليين دلائل تدل على حرب ضروس لم يحدث لها شبيه من قبل . إن ألمانيا تهدد أوربا كلها بوجه عام وفرنسا بوجه خاص ، ولكن الحرب إذا وقعت فسوف لا تحتفظ ألمانيا بعدها بمركزها الرفيع . وقد سبق أن أكدت مراراً أن أيام القيصر أصبحت معدودات ، وسوف تحدث بعده تغيرات هائلة فى ألمانيا . »

وقد تنبأ بعض العرافين بموت اللورد كتشنر غرقاً وهو فى

السادسة والستين من عمره ، وأن مارك توين الروائي المشهور سوف يصبح ثرياً في أواخر أيامه أى بعد الثامنة والستين من عمره ، وهى كلها أمور تحققت عن آخرها فيما بعد .

ومجمل القول إن التنبؤات موجودة منذ أن وجد الإنسان . ونحن اليوم نسخر من النبوءات التى يطالعنا بها من حين لآخر بعض العرافين والمنجمين وإن كان الكثيرون منا يعتقدون فيها وإن لم يفصحوا عن هذا الاعتقاد خوفاً من أن يرميهم الناس بالسذاجة أو التأخر العقلى . وليس هذا بجديد فقد وجد على الدوام فى كل عصر من العصور أناس سخرُوا من هذه النبوءات وآخرون اعتقدوا فيها . ولعل مرد هذا أنه لم يوجد قط عراف أو منجم صدق كل الصدق فيما تنبأ به . كما نجد إلى جانب ذلك عرافين تنبأوا بأشياء لا يميل الناس عادة إلى تصديقها كهؤلاء الذين يتنبأون من وقت لآخر بقرب فناء العالم فكان مصيرهم السخرية والمقت ، بل إن بعض العرافين قد تنبأوا فى العهد القديم بفناء أو زوال قارة الأطلانتس (القارة المفقودة) فكان مصيرهم القتل .

والإنسان بطبعه ميال إلى الشك بل إن الشك عنصر من عناصر حياته العقلية ، ومما زاد من شكه فى هذه النبوءات ظهور

بعض العرافين تنبأوا بنبوءات كاذبة لم يتحقق منها شيء، على أن هذه النبوءات الكاذبة لا يجب أن تقلل من قيمة النبوءات على الإطلاق، أو تكون مطعناً في فن الكهانة، فما من فن إلا وكان حدس أهله عرضة للكذب . فإذا أخطأ الطبيب في حدسه فإن ذلك لا يطعن في فن الطب ولا يمكن كذلك أن نقول إن الملاحاة ليست فناً لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه، وهل يفقد الفن العسكرى قيمته لأن قائداً طائر الصيت قد حلت به الهزيمة وفقد جيشه وولى الأدبار ؟

لقد ذكر العرافون كثيراً من النبوءات الصادقة، وتحفظ لنا كتب التاريخ الكثير من هذه النبوءات الصادقة التى تحققت عن آخرها وهذا يدعونا إلى التساؤل : من هو العراف ؟ هناك تعريف حديث يقول إن العراف هو شخص بعيد النظر الروحى فكما أن هناك فى العالم الطبيعى قصر نظر وبعد نظر فكذلك هناك بعد نظر روحى .

ويمكن أن نعرف التنبؤ بالاختصار بأنه قوة تمكن صاحبها من رؤية الأشياء والحوادث غير المنظورة، سواء فى الزمان أو فى المكان . والنبوءة لا تفيد عادة قائلها بشيء من الأشياء، بل كثيراً

ما أدت بعض النبوءات إلى استشهاد من قالوا بها .
 ومما هو جدير بالذكر أن علماء البحوث الروحية، وكثيراً
 من علماء النفس يعتقدون اليوم في تبادل الشعور والخواطر مع
 الغير وهو ما يعرف عندهم باسم « تلباثي » Telepathy ويرون في
 التنبؤ بالحوادث المستقبلية حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وإن لم
 يجدوا لها تفسيراً تطمئن إليه النفس . وليس هذا مقصوراً على
 تبادل الشعور والخواطر والتنبؤ بالأحداث المستقبلية، بل هناك
 أيضاً حقائق علمية كثيرة لا نجد لها تفسيراً، أو أنها لم تفسر بعد
 التفسير الكافي المقنع .

إن كل ما نتمتع به اليوم من وسائل الراحة والرفاهية إنما هو
 ثمار آراء بدت في أول أمرها غريبة مستنكرة ، وكم سفهت
 واستهزئ بأصحابها ورموا بالجنون وفساد الرأي فيما يذهبون، ولكن ما
 لبث ما كان بالأمس مزاعم باطلة أن صار اليوم حقائق ثابتة
 ذات ثمار يانعة فيها منافع للناس .

نحن لا نعرف اليوم على سبيل المثال ما هي الكهرباء وأن
 كل ما نعرفه عنها هو آثارها التي نشاهدها ، وكذلك الحال
 بالنسبة للأشعة الكونية أو القوة التي تتحكم في الذرة وغير ذلك
 من الظواهر الكونية . لقد مضى الوقت الذي كانت تعتبر فيه

هذه الأشياء التي لا نجد لها تفسيراً من خوارق الطبيعة ، ولكننا لا نميل اليوم إلى نعتها بأنها من خوارق الطبيعة ، ولكنها أشياء طبيعية لم تفسر بعد .

إن من مظاهر تفكيرنا تلك الظاهرة التي نطلق عليها لفظ « المحال » فنحن نعرف أنه منذ أكثر من قرن من الزمان كانت بعض الأشياء المألوفة لنا اليوم تعد من الأمور المستحيلة . ألم تكن مبادئ نظريات الطيران والغواصات والراديو والتليفزيون آراء غريبة طالما سخر الناس من القائلين بها ، محتجين إذ ذاك بأن تحقيق تلك الآراء مما يتنافى وسنن الكون وقوانينه الطبيعية .

فنحن نعرف أن المهندسين منذ أكثر من قرن من الزمان ، ذكروا أنه من المحال أن تجرى عربات حديدية ذات عجلات ملساء فوق خطين من الحديد وهي محملة بالأثقال دون أن تنزلق ، وأنه من المحال أن تجرى هذه العربات الحديدية بسرعة عشرين أو ثلاثين ميلاً في الساعة دون أن تهشم أجسام البشر الذين يركبون هذه العربات أو تحدث لهم أشد أنواع الاضطرابات المخية والعصبية .

وكان القول بإمكان صعود الإنسان إلى القمر أو غيره من الأجرام السماوية في مستقبل هذا القرن يعد ضرباً من الخيال

لا يمكن تحقيقه ولكننا اليوم أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الصعود إلى هذه الأجرام السماوية بفضل هذه الصواريخ الجبارة التي هي من صنع الإنسان . إن عدد الأشياء التي نعتها الإنسان بأنها محالة تتفق وعدد المخترعات والمكتشفات الإنسانية .

إن عالماً ممتازاً مثل السير همفري دافى Humphry Davy قد سخر من الفكرة القائلة بأنه في الإمكان إنارة مدينة كبيرة مثل لندن بمصباح الغاز ، وأن أكاديمية العلوم الملكية البريطانية قد ماجت بأصوات السخرية والاستنكار عند ما أعلن أمامها بنجامين فرانكلين رأيه عن مانعة الصواعق . ومجمل القول إن الاعتقاد في استحالة تحقيق الأشياء الصعبة أو غير المفهومة من العادات التي كونتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل . لقد كان هناك من سوء الحظ نبوءات كثيرة ظهرت خلال التطور البشري لم يتحقق منها شيء ، وكان إلى جانبها نبوءات صادقة ولكنها كانت مع ذلك موضع الشك والسخرية شأنها في ذلك شأن النبوءات الكاذبة .

إن الشك عادة عقلية مفيدة ، ولكن كثيراً ما يساء استعماله فيكون ضرره أكثر من نفعه . وإنه على الرغم من الشك والسخرية في محيط التكهّن بالغيب فإن النبوءات ظاهرة قد تغلغت في

ضمير الإنسانية منذ آلاف من السنين ، ولم تقو أية قوة على محوها من ضمير الإنسانية . إن تعلق المرأة بالحديثه — بل وكثير من الرجال — بالمنجمين والعرافين وضاربى الرمل والودع أمر يفوق الوصف . إن اعتقادنا فى النبوءات لا يمكن أن يموت شأنه فى ذلك شأن اعتقادنا فى كثير من الظواهر النفسية والأمور الروحية وإن عز علينا تفسيرها .

ومن أبسط الأمثلة التى يفسرون بها سبق النظر فى مجال الغيب، قولهم فلنتخيل قطار سكة حديد يسير حول جبل من الجبال ، ويقرب منه من الناحية الأخرى من الجبل قطار آخر يسير على نفس الخط الحديدى . وأن كلا من القطارين يسير بسرعة واحدة ولا يبرى أحدهما شيئاً عن الآخر . ولا يتلقى هذان القطاران أية إشارة للتوقف ، والنتيجة الحتمية هى تصادم القطارين لأن كلا منهما جاهل بمصيره . وهناك رجل فى طائرة على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق القطارين وهو مدرك تمام الإدراك لما سوف يحدث للقطارين فهذا واضح أمامه تمام الوضوح . ولو كان فى استطاعته الاتصال بالقطارين لأنبأهما بالكارثة التى تنتظرهما، اللهم إلا إذا اتخذ القطاران من الإجراءات السريعة المباشرة التى تحول دون وقوع هذه الكارثة . إن هذه القدرة

التنبؤية بسيطة غاية البساطة بالنسبة للطيار إنه في حالة تسمح له بأن يرى ويدرك ويتنبأ . كذلك العراف هو في حالة نفسية تسمح له بأن يرى أحداث المستقبل ويتنبأ بها .

والواقع أن التنبؤ بالغيب ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية، حظها من البحث العلمي ضئيل بالمقارنة مع الظواهر الإنسانية الأخرى . لقد ضمت كثير من المؤلفات المنوعة شوارد مبعثرة من المعلومات المثيرة عن التنبؤات الصادقة والأخرى الكاذبة . وليس غرضنا من هذا البحث المقتضب أن نؤيد أو ننكر القدرة على التنبؤ بالغيب ، إنما غرضنا أن نجعل القارئ على دراية بموضوع من الموضوعات التي تثير اهتمامه وشغفه ثم نترك له بعد ذلك الحكم على الموضوع وفق ما يهتدى إليه عقله وإحساسه .

الفصل الثانى التنبؤات فى العهد القديم

يصف أفلاطون التنبؤ بأنه « أسمى الفنون » وكان القدماء يمارسونه على نطاق واسع عن طريق أماكن الوحي المختلفة oracles فقد كان فى العهد القديم مراكز خاصة للتنبؤ يذهب إليها الناس لاستشارة الآلهة فيما ينوون القيام به من أعمال ، فتحدث إليهم الآلهة على لسان الكهنة الموجودين فى كل مركز من تلك المراكز وبأسلوب خاص يتميز به كل مركز منها .

وكان رأى أن هذا النوع من النبوءات يعد ضرباً من الهذيان، إذ كان يعترى الكهنة فى تلك المراكز التنبؤية نوع من الهذيان، فتنتطلق ألسنتهم بأقوال تنبئ عما سيحدث فى قابل الأيام. وقد فسر سقراط هذا الهذيان بأنه هبة خاصة من السماء ومنبع أعظم النعم بين البشر . فقد أسبغت كاهنات دلفى ودودونا — وكانا من أهم المراكز التنبؤية فى بلاد اليونان القديمة — نعماً وفيرة على بلاد اليونان عند ما كان يعترى هؤلاء الكاهنات هذا الضرب من الهذيان فى حين أنهن لم يقدمن إلا القليل من هذه النعم وهن فى كامل وعيهن .

لقد كان هذا هو رأى أعظم حكماء اليونان فى هذه النبوءات الأمر الذى جعل جميع الإغريق يعتقدون فيها طوال مئات بل آلاف من السنين ، ويغمرون مذابح المعابد القائمة فى تلك المراكز التنبؤية بالهدايا والقرايين حتى إننا عند ما نقرأ اليوم عن وحي دلفى وما كان به من ساحات متسعة ونافورات ومعابد جميلة ، واستاده العظيم ومسرحه الفخم وتمائيله الرخامية العديدة والأخرى المصنوعة من البرنز بل ومن الذهب ، ورسومه التى أبدعتها ريشة الرسام الإغريقى الشهير بوليغنوتس Polygnotus لتضاعل أمام أعيننا جميع الكنوز المحفوظة الآن فى أكبر المتاحف العالمية .

لقد تجمع هذا الثراء العظيم فى بقعة واحدة من أرض اليونان لوجود كاهنة فى تلك البقعة تدعى « بيشيا » Pythia كانت تلوك بين أسنانها بعض أوراق شجر الغار وتستشق الغازات التى كانت تنبعث من شق فى الصخر أسفل الكرسي الذى كانت تجلس عليه ، وتشرب من مياه نبع كاسوتس المقدس فتعترىها شبه غيبوبة وتهذى بكلام ينبئ عما سيقع من أحداث فى مستقبل الأيام .

كان الناس يلجأون إلى كاهنة دلفى هذه ويلقون إليها

بأسئلتهم فتأتيهم الإجابة وكثيراً ما تكون مشوشة وغير مفهومة بالنسبة للسائل فيتصدى لتفسيرها حاشية بيثيا من الكهنة الملازمين لها ويصيغونها في أبيات مفهومة من الشعر المرسل . وإن ثراء وحى دلفى وشهرته الكبيرة التي طالت مع الزمن لدليل قوى على أن الناس في ذلك العهد القديم كانوا يعتقدون في صحة النبوءات التي تصدر عن هذا الوحي ، وأنها قد تحققت على مدى الأيام .

ولعل أقدم مراكز التنبؤ اليونانية هي وحي دودونا Dodona في جنوب مقدونيا . وكان هذا المركز يقوم وسط مرج من أشجار البلوط . وكان الاعتقاد أن حفيف هذه الأشجار يحمل في طياته إرادة الإله زيوس ومشيئته . وكان الكهنة بدورهم يقومون بتفسير هذه الأصوات التي تنبعث من أوراق هذه الأشجار ويعيدونها الإجابة المنشودة عن الأسئلة التي كانت تنهال على كهنة هذا المركز من الوافدين إليهم من جميع أنحاء اليونان استنباء عما يخفيه عنهم القدر من أمور وأحداث .

والظاهر أن الآلهة كانت تتعشق المروج والأشجار وخاصة أشجار التوت والبلوط ونبات الطرفاء . وتذكر كتب التاريخ أن جان دارك تلك المسيحية العذراء كانت تستمع إلى هواتف عليا تأتي إليها من بين أشجار الغابة التي كانت ترعى فيها أغنامها

حتى أنها قد توسلت إلى جلاديهـا قبل إحراقها أن يذهبوا بها مرة أخرى إلى الغابة حتى تستمع إلى هذه الهواتف السماوية التي كانت تستمع إليها من قبل في غابات موطنها دومري Domremy من أعمال فرنسا .

ومهما يكن من الأمر فإن وحي دودونا هذا كان قديم العهد في الوقت الذي أخذ فيه هوميروس يتغنى بأشعاره . وقد تجمعت حول هذا الوحي الكثير من الأساطير والأخبار ، منها أن جماعة من أهل مقاطعة بيوشيا اليونانية جاءوا لاستشارة هذا الوحي فأشارت عليهم كاهنته مرتيل myrtile بأن الأجلر بهم أن يفعلوا أكثر الأشياء نكراً ، فلم يسعفهم تفكيرهم في تلك اللحظة بأكثر من أن يلقوا هذه الكاهنة في دست مليء بالماء المغلي وقالوا إنهم لم يجدوا أكثر من ذلك عملاً يتسم بالحدود ونكران الحميل . والواقع أن كثيراً من هؤلاء الكهنة والعرافين قد لاقوا مصيراً سيئاً أشبه بهذا المصير إما بسبب النبوءات التي قالوا بها ولم تلاق هوى في نفوس سامعيها ، وإما بسبب عدم تحقق النبوءات التي قالوا بها .

وقد عثر الأثريون على بعض لوحات نقشـت عليها بعض الأسئلة التي كان يوجهها الناس إلى وحي دودونا منها هذا السؤال :

« هل فقدت منى أغطيتى ووسادتي أم سرقها غريب ؟ » وسأل آخر : « هل أنا أبو هذا الجنين الذى سوف تضعه زوجتى نيلا nyla قريباً ؟ » وغير ذلك من الأسئلة التى تدور على هذا المنوال .
ويا حبذا لو كان فى مقدورنا أن نعرف ردود هذه الأسئلة ولكن المجموعات الكبيرة التى كانت تضم هذه النبوءات المختلفة والتى ظلت على قيد الوجود أكثر من ألفين من السنين قد اختفت نهائياً حوالى الوقت الذى استولى فيه الترك على مدينة القسطنطينية ولم يبق منها إلا بعض فقرات لا تغنى الباحث كثيراً فى هذا الموضوع .

ومجمل القول إن هذه النبوءات كانت من الأمور المعروفة فى العهد القديم . وكان يعتقد فيها كثير من الأمم المتحضرة وفى طليعتها اليونان التى كانت تضم أحكم حكماء العهد القديم من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط . والمعروف أنه قد جاء على لسان كاهنة دلفى أن سقراط هو أحكم حكماء البشرية . وكان لهذا القول أثر عميق فى نفس سقراط .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته قال :

« إني لمغتبط بهذا الموت كل الاغتياب لأن الإله لم يعطنى

شارة عند ما برحت دارى ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتى ومن عادة الإله أن يعطى هذه الشارة كلما هددنى الشر .

وهناك كلمة مشهورة يغروها التاريخ إلى سقراط وهى :
 « إن هناك شيئاً إلهياً ذلك هو ما أطيعه دوماً وهو على الرغم من أنه لا يدفعنى إلى عمل ما فإنه كثيراً ما يمنعنى عن الإقدام على عمل بالذات » . ويروى عن سقراط أيضاً أنه رأى ذات يوم صديقه « أقريطون » وقد عصب عينه برباط فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقريطون ؟ فأجابه هذا قائلاً :

« بينما كنت أتجول فى الريف إذا بغصن شجرة منحني قد انطلق وأصاب عيني » فقال سقراط : « هذا معقول لأنك أبيت طاعتي عند ما أرسلت فى طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً إلى النذير الإلهى الذى اعتاد زجرى » .

على أن اليونانيين فى ذلك العهد البعيد كانوا نزاعين أيضاً إلى الشك فى كل شئ كما هو شأننا اليوم . فنحن اليوم نشك فى كل شئ ونسخر من كل شئ ونطلب تفسيراً معقولاً لكل شئ وكذلك فعل اليونانيون . على أن الكهنة فى مراكز هذه الهوائف الإلهية كانوا على جانب كبير من اللباقة والدهاء

وبعد النظر ولهم تجارب متنوعة في شتى الأمور . وليس من شك مع هذا أن الكثير من هذه التنبؤات التي قالوا بها لم يتحقق ، كما أن كثيراً منها كان على جانب كبير من الغموض والإبهام .

على أن هذا كله لا يفسر لنا ذلك النظام التنبؤي الذي ظل قائماً طوال آلاف السنين في أكثر الأمم حضارة وتقدماً . لقد استشار الملوك والساسة هذه الهواتف في أعقد المشاكل في السياسة وشئون الدولة . وقد قال شيشرون خطيب الرومان الأشهر — وكان خصماً عنيداً للتنبؤ في مختلف فنونه — « إن مهبط الوحي في دلفي ما كان يكثر زواره على هذا النحو ويشتهر إلى هذا الحد ويزدحم بالقرايين ، تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب ، لو أن الناس في مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منذ زمن طويل واضمحلت شهرته في الوقت الحاضر إذ لم يعد له من بعد الصيت ما كان له قديماً ، فإنه ما كان يصيب هذه الشهرة في ماضيه لو أنه كان غير خليق بالتقدير في أعلى مراتبه . ومن الممكن أن تكون الأبنحة الأرضية التي كانت تضيء نفس كاهنة « پيثيا » بالإلهام الإلهي قد اختفت بالتدريج على مر الزمان ، كما جفت فيما نعلم أنهار واختفت من الوجود . بينما غير بعض الأنهار الأخرى بالانحراف

والدوران مجراه .

ولعل من أشهر نبوءات العالم القديم التي صدرت عن وحي دلفى هي النبوة المتصلة بالملك قارون Croesus ملك ليديا . وكان هذا الملك من أغنى ملوك الأرض وكان يضرب بثرائه الأمثال فيقال أغنى من قارون . وقد حفظت لنا كتب التاريخ قصة هذه النبوة التي قيلت لهذا الملك والرؤيا التي رآها وما كان من أمر تحقق النبوة والرؤيا معاً .

اعتلى قارون هذا عرش بلاد ليديا بعد وفاة والده وبدأ يحكم وهو في الخامسة والثلاثين من عمره . وقد أغار قارون على جميع الولايات اليونانية في آسية الصغرى ، سواء ما كان منها تابعاً للأيونيين أو للأيوولين ، وأخضعها جميعاً إلى سلطانه . ولم يكتف قارون بإرغام اليونانيين في آسية الصغرى على دفع الجزية له ، بل صمم على بناء أسطول ضخم يهاجم به اليونانيين من سكان الجزر ، ولكنه أقلع عن تلك الفكرة نزولاً على مشورة بعض الناصحين واكتفى بأن أصبح صاحب الكلمة العليا على جميع الدويلات التي كانت منتشرة في آسية الصغرى .

وبعد أن حصل قارون على هذه الانتصارات كلها وبسط من سلطان ليديا أصبحت ساردس Sardis عاصمة ليديا موثلاً

للمشاهير والعظماء، وأصحاب الفلسفة والمواهب الفنية في جميع البلاد . وكان من بين هؤلاء الذين وفدوا على ساردس صولون المشرع اليوناني المشهور . فقد سن هذا المشرع نزولا عند رغبة الأثينيين مجموعة من القوانين لتطبيقها في بلادهم ثم خرج بعد ذلك يجوب بلاد العالم في رحلة استغرقت عشر سنوات متصلة . وكان الغرض الظاهر من هذه الرحلة هو الدرس والإطلاع ، أما هدفه الحقيقي فكان لتجنب ضرورة إلغاء أو إبطال هذه القوانين التي سنّها . فقد كان الأثينيون لا يستطيعون أنفسهم عمل ذلك ؛ إذ آلوا على أنفسهم أن يحتفظوا بهذه الأنظمة القانونية التي وضعها صولون دون انتهاك طوال عشر سنوات .

وقد زار صولون عدة بلاد منها مصر ثم ذهب ، إلى ساردس عاصمة الملك قارون وهناك قابله الملك بالترحاب ودعاه للإقامة في قصره . وبعد أيام من حضوره إلى القصر كاف قارون خدمه بأن يصطحبوا صولون ويطلعونه على خزائن ثروته ليرى ما بها من نفائس وتحف . ولما تم ذلك استدعاه قارون ووجه إليه الخطاب قائلا :

« ضيفي الأثيني ، إن صوت الشهرة يفصح عالياً عن حكمتك . ولقد سمعت الكثير عن أسفارك وأنتك قمت بدافع

حبك للفلسفة بزيارة جزء كبير من العالم، الأمر الذى دفعنى لأن أعرف منك أى رجل من بين الذين شاهدتهم هو أسعد الناس فى رأيك .

كان قارون يتوقع أن يكون هو أسعد البشر ، الأمر الذى دفعه إلى سؤال صولون هذا السؤال . ولكن صولون برهن بإجابته أنه من أنصار الحق وأنه يمحى التملق والمداهنة .

أجاب صول : « أظن أيها الملك أن تلبوس الرجل الأثينى هو الشخص الذى يستحق أكثر من غيره أن نطلق عليه لفظ السعيد » . وقد عجب قارون من هذا القول فسأله : « وعلى أى شىء أقمت هذا الادعاء ؟ » فأجابه صولون : « لأن تلبوس هذا كان يعيش فى ظل حكومة عادلة، وكان له كثير من الأبناء الفضلاء المحبوبين . وقد رأى تلبوس أحفاده ولم يمت أحد منهم فى حياته . وبعد حياة موفقة ناجحة احتفلنا بجنائزته بكل مظاهر التشريف والتبجيل، إذ اشترك فى الدفاع عن وطنه ضد العدو، ووقع شهيداً فى ميدان الفخار والمجد . وقد دفنه الأثينيون حيث استشهد ، وأقاموا له احتفالاً فخماً » .

وظل صولون يحكى من أمجاد تلبوس هذا الشىء الكثير

ولكن قارون قاطعه لأنه رغب مثلها أن يعرف الشخص الذى يمكن أن ننته بالسعيد بعد تلوس هذا، ولم يكن يشك قارون أن إجابة صولون سوف تنصب عليه هذه المرة .

أجابه صولون : « هما كليوبس Cleobis وبيتو Bito وهما أخوان من أهل أرجيف ، كانت ظروف حياتهما ملائمة ، وقد اشتهرا بقوتهم البدنية الأمر الذى توجا من أجله بأكاليل الغار لفوزهما فى المسابقات العامة . ومما يحكى عنهما أنه إبان الاحتفال الذى أقيم للإله جينو حيث كان المفروض أن تحمل أمهما إلى المعبد على عربة تجرها الثيران . ولسبب ما لم تتمكن الثيران من القيام بعملها ، فما كان من هذين الشابين إلا أن وضعوا نير العربة على أكتافهما ، وسحبا العربة وعليها أهلهما حتى باب المعبد لمسافة طولها نحو ستة أميال . وقد قاما بذلك أمام عدد جم من النظارة ، وما أن انتهيا من تلك المهمة حتى اختبا حياتهما بشكل فريد سعيد . فقد دلل الآلهة فى هذه الحادثة على أن الموت نعمة تفوق نعمة الحياة . لقد أفصح الحاضرون عن إعجابهم بعمل هذين الشابين وامتدحوا قوتهم البدنية وتمنت النساء أن يكن فى مركز أمهما التى اغتبطت لهذا العمل الذى صاحبه المجد والفخر .

وقفت الأم أمام المذبح وابتهلت إلى الآلهة أن تخلع على

ولديها أحسن النعم التي يمكن أن يحصل عليها إنسان . وما أن انتهت الأم من ابتهالاتها وانتهت الجموع من تقديم القرابين حتى انتحيا الشابان مكاناً منعزلاً بالمعبد ليأخذوا قسطهما من الراحة بعد هذا العمل المجهد ، ولكنهما لم يقوما من مكانهما أبداً بعد ذلك إذ انتهت حياتهما عند هذا الحد . وكان من أمر أهل أرجيف أن أقاموا تمثالين لكليوبس وبيتو واحتفظوا بهما في معبد دلفي على اعتبار أنهما شخصان يستحقان أعظم التقدير .

وتلك في رأى صولون وتقديره سعادة من الدرجة الثانية . ظل قارون غير راض عما سمعه من صولون فوجه الكلام إليه قائلاً : « أيها الأثيني ، إنك تنظر باحتقار إلى مظاهر ثرائي بحيث وضعتني في مرتبة أدنى من مرتبة أشخاص مغمورين لاشأن لهم » . فقال صولون : « لا تنعت أى شخص بأنه سعيد إلا بعد أن تعرف طبيعة مبدته . إن أسباب السعادة ليست في استطاع أى شخص أن يحصل عليها جميعاً » وما إن سمع قارون هذه الكلمات من صولون حتى انصرف عنه عازفاً عن سماع رأيه فيه ؛ فخرج هذا المشرع الفيلسوف من قصر قارون آسفاً على مسلك هذا الملك ، الذي أبى أن يستمع لصوت الحكمة على لسان هذا المشرع العظيم .

وما إن رحل صولون حتى رأى قارون مناماً أزعجه أشد الإزعاج ، وكأنه عقاب حكمت به السماء نظير عجزفته وادعائه بأنه أسعد الناس جميعاً . رأى قارون في منامه رؤيا تهدده بكارثة حرمة فيما بعد من ولده . كان لقارون ولدان : أحدهما أبكم ، أما الآخر ويدعى أتيس Atys فكان يمتاز بتفوقه ونباهته . وكان مغزى الحلم الذى رآه قارون أن ولده أتيس سوف يموت بطعنة من سن رمح حديدى . هب قارون فزعاً من هذا الحلم وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه . وكانت أول خطوة اتخذها أن قرر تزويج ابنه هذا ثم نحاه عن قيادة الجيوش الليدية التى قادها أتيس من قبل فى عدة حملات ، ثم نقل بعد ذلك جميع الرماح والنبال وغيرها من أدوات القتال من منازل الرجال إلى منازل النساء حتى لا تصيب واحدة منها ابنه ، إذ ربما تسقط عليه من مكانها المعلقة به .

وبينا كان قارون منهمكاً فى حفلات زفاف ابنه أتيس إذ جاء إلى ساردس أحد أفراد الأسرة المالكة فى فريجيا لاجئاً بعد أن ارتكب جريمة قتل . وقد حضر إلى قصر قارون طالباً من الملك حمايته . ولما سأله قارون فى أمره علم منه أنه يدعى أدراستوس وأنه قتل أخاه عن غير عمد فنفاه أبوه من البلاد . ولما كان قارون

على علاقات طيبة مع أسرة هذا اللاجئ، فقد فتح له أبواب قصره وبسط عليه حمايته .

وقد ظهر في حوالى ذلك الوقت في ميسيا Mysia بالقرب من أولبوس خنزير برى هائل الحجم كان يهبط من الجبال بين الحين والآخر، ويفتك بمن يصادفه من أهل تلك البلاد . وقد هاجمه الأهالى أكثر من مرة ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه . ولما عز عليهم الأمر استنجدوا بالملك قارون، وطلبوا إليه أن يرسل إليهم ولده على رأس جماعة من شباب ليديا، ومعهم عدد من كلاب الصيد لتخليصهم من هذا الحيوان المفترس . ولكن قارون تذكر الحلم الذى رآه فأرسل إلى أهل ميسيا يعتذر عن إرسال ولده، بحجة أنه قد تزوج حديثاً ولا يسمح له وقته بمصاحبة هذه البعثة المطلوبة . ولما سمع أتييس بذلك أسرع إلى أبيه قارون ورجاه أن لا يحرمه من هذه الفرصة التى تتيح له أن يظهر شجاعته أمام زوجته، وأمام مواطنيه بوجه عام . فأخبره أبوه خبر الحلم الذى رآه فأقنعه أتييس أنه لو كان قد رأى فى المنام أنه سيموت بوخزة قرن أو نحو ذلك لكان له العذر فى منعه من مصاحبة هذه البعثة . وأخيراً سمح له أبوه بالذهاب إلى ميسيا مع أفراد البعثة للقضاء على هذا الخنزير البرى المتوحش .

وكان من أمر قارون أن أحضر هذا اللاجىء الفريجى وطلب منه نظيره، إيوائه وبسط حمايته عليه أن يكون حارساً أميناً لابنه طوال مدة هذه البعثة . ولقد قبل ذلك هذا اللاجىء عن طيب خاطر .

خرجت البعثة إلى ميسيا وكانت تضم نخبة من شباب ليديا الماهرين فى الصيد والقنص ومعهم عدد من كلاب الصيد المدربة . وقد وصلوا إلى جوار أولبوس وبحثوا عن الخنزير حتى وجدوه فضيقوا عليه الحصار وهاجموه برماحهم . وحدث أن سدد ادراستوس رمحه نحو الخنزير ولكنه أخطأه وأصاب سن الرمح أتيس فقتله . وبذلك تحققت رؤيا قارون . وما إن علم قارون بمقتل ولده حتى أخذ يندب سوء حظه . وقد تقدم إليه ادراستوس طالباً منه أن يأمر بقتله لما اقترفته يداه، ولكن قارون أجابه قائلاً : « إنك لست مذنباً فقد ارتكبت ذلك عن غير عمد ، إن الإله الذى حذرنى من هذا الشر هو الذى قام به » .

وقام قارون بعد ذلك بدفن ولده باحتفال مهيب . وفى المساء تسلل أدراستوس الذى قتل أخاه ثم صديقه إلى قبر أتيس واخذ ينعبه وينعت نفسه بأنه أتعس البشر طراً ثم طعن نفسه بخنجر فخر صريعاً فوق قبر أتيس .

أمضى قارون السنتين اللتين أعقبتا وفاة ابنه في حزن عميق . ولم يكن يشغل باله في تلك الفترة إلا ازدياد عظمة الإمبراطورية الفارسية وعلى رأسها الملك كايروس بن قمبيز . أخذ قارون يتساءل هل يقدم على عمل يوقف به توسع هذه الإمبراطورية قبل أن تصبح خطراً يهدد دولته ، أم يترقب ما سوف تجيء به الأيام . وأخيراً صمم على استشارة مراكز الوحي في اليونان والأخرى الموجودة في ليبيا . وأرسل لهذا الغرض رسلاً إلى دلفي ودودونا وبرانشيدا وتروفونيوس وأمفياروس وهي أشهر مراكز الوحي في اليونان القديمة ، كما أرسل رسله إلى مركز الوحي الشهير في صحراء ليبيا وهو المعروف باسم زيوس آمون .

وكان غرض قارون من ذلك أن يختبر صدق هذه الهوائف السماوية ثم يحصل منها بعد ذلك على رأى قاطع بخصوص حملة يوجهها لمقاتلة الملك كايروس والقضاء على دولته . وزود قارون رسله بتعليماته وهي أن يسألوا هذه المراكز في اليوم المائة من رحيلهم من ساردس عما يفعله الملك قارون في ذلك اليوم ويدونوا ذلك كتابة ثم يخبرونه به بعد عودتهم إلى ساردس . ولم يحفظ لنا التاريخ الإجابات التي ذكرتها هذه المراكز التنبؤية ، وكل ما يعرف أن رسل قارون ما إن دخلوا معبد دلفي في اليوم المحدد

وتقدموا بسؤالهم لكاهنته بشيا حتى أجابت :

إننى أحصى الرمال وأكيل البحار
وأسمع الأبكم والأصم صوتي
والآن يتصاعد إلى أنفى رائحة
سلحفاة وشاة فى قدر يغليان
حيث نحاس من أسفل ومن أعلا نحاس

ولما عاد الرسل إلى ساردس وأخبروا الملك بالإجابات التى سمعوها من هذه المراكز المختلفة وجد أنها غير مرضية ، ولكن ما أن سمع إجابة وحى دلفى حتى صاح بأن هذا هو ما كان يفعله فى ذلك اليوم المحدد . لقد عمد قارون فى ذلك اليوم إلى صنع شىء لا يخطر على بال أحد فقد أخذ سلحفاة وشاة وقطعهما إرباً ثم وضعهما فى قدر من النحاس له غطاء من النحاس وأشعل النيران تحت القدر فأخذ يغلى بما فيه . وعزم قارون بعد ذلك على أن يستحوز على عطف ورضاء إله دلفى عن طريق تقديم القرابين العظيمة . وتذكر كتب التاريخ أنه قدم من جميع الحيوانات الصالحة للقرابين ثلاثة آلاف رأس من كل منها ، كما أنه أحرق عدداً كبيراً من غالى الثياب والرياش المحلاة

باللألىء ونفيس الأحجار الكريمة على أمل أن ذلك كله سوف يكسبه عطف ومناصرة إله دلى كما طلب من الليديين أن يقدم كل منهم ما يملك قرباناً لهذا الإله .

وبعد أن انتهى قارون من تقديم هذه القرابين حتى أذاب قدراً كبيراً من الذهب وصنع منه قواعد للتماثيل طول الواحدة منها ستة أشبار وعرضها ثلاثة أشبار ، وارتفاعها شبراً ، وبلغ عددها ١١٧ قاعدة . وكان أربع من هذه القواعد من الذهب الخالص أما الباقية فكانت من خليط الذهب والفضة ، كما صنع تماثلاً لأسد من الذهب الخالص حمله على هذه القواعد .

ولما أتم قارون صنع هذه الأشياء كلها أرسلها إلى دلى ومعها أكثر من ذلك ، قدراً كبيراً من الذهب والأخرى من الفضة ، وضعت الذهبية منها إلى يمين الداخل إلى المعبد والفضية إلى يساره . وأرسل قارون أكثر من ذلك ، أربع قوارير فضية لحفظ الخمور واثنين لحفظ ماء الطهور إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة وغير ذلك من نفيس التحف والهدايا .

وطلب قارون من الرسل الذين حملوا هذه الهدايا إلى معبد دلى أن يسألوا وحى دلى هذا السؤال : « هل يخرج قارون بملاقاة الفرس ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل سيتحالف معه غيره

في سبيل تحقيق هذا الغرض؟» وكانت الإجابة التي تلقاها كما يلي : « إذا خرج قارون لمحاربة الفرس فإنه سيقضى على إمبراطورية عظيمة » . كما تضمنت الإجابة توصية بالتحالف مع أقوى الدويلات اليونانية .

ولما سمع قارون هذه الإجابة فرح غاية الفرح على أمل أنه هو الذي سيقهر كايروس ويقضى على دولته . لقد فسر قارون هذه النبوءة وفق هواه فعمل على إيجاد تحالف دفاعي بينه وبين كثير من الدويلات اليونانية ، وكذلك بين المصريين ، ثم خرج بعد ذلك لمحاربة فارس . وقد حذره بعض عقلاء القوم من مغبة هذه الحملة لأنه لو انتصر على الفرس فسوف لا يجنى شيئاً من هذا الانتصار أما إذا لحقت به الهزيمة فسوف يفقد كل شيء ، ولكن قارون اختار الحرب وكانت النتيجة أن لحقت به هزيمة منكرة : فقد اجتاح الفرس مدينة ساردس عاصمة ليديا بعد أربعة عشر يوماً من بدء القتال ووقع قارون نفسه في الأسر .

وقد أمر كايروس ملك الفرس بأن يحرق قارون على كومة هائلة من الحطب . وبينما هو واقف على هذه الكومة في انتظار مصيره المحزن وإذا به يخرج من بين ضلوعه أنات عميقة ويهتف

ثلاث مرات قائلا : صولون ، صولون ، صولون . فقد تذكر
للتو قول صولون بأنه لا يصح أن ننت أي شخص بأنه سعيد
إلا بعد أن نعرف طبيعة ميته . وقد أحب كايروس الملك المنتصر
أن يعرف ما يقصده قارون من مناجاة هذا الشخص الذي
يسمى صولون ، ولكن قارون ظل صامتا فترة من الوقت لا يحير
جواباً ولما أرغم على الكلام ذكر قصته مع صولون المشرع الأثيني
وأن المال في واقع الأمر لا يمكنه بحال أن يسعد صاحبه .

وبينا كان قارون يقص على السامعين قصته مع صولون إذا
بالنيران قد اشتعلت في كومة الحطب التي سيحرق عايتها قارون
هو واثني عشر شاباً من أبناء ليديا . ويقال إن كايروس بعد أن
سمع هذه القصة من قارون رأى أنه من الجهل والغباء أن يقدم
للنيران رجلا لم يكن أقل منه جاهلاً وثراء ، وخشى أن يحل به هو
نفسه في يوم من الأيام ما حل بقارون ، إذ ما من شيء يملكه
الإنسان له صفة الدوام والبقاء ولذلك أمر بأن تطفأ النيران بأسرع
ما يكون وأن ينزل قارون من فوق منصة الإحراق هو ومن معه ؛
ولكن الجند لم يستطيعوا التحكم في النيران التي كان قد استعر
أوارها في تلك اللحظة .

وتذكر كتب التاريخ أن قارون لما علم أن الملك كايروس

قد غير من رأيه وأن كل فرد من الحاضرين يحاول إطفاء النيران دون جدوى ابتهل إلى الإله أبولو أن يهب لنجدته وتخليصه من هذا البلاء المحيط به إذا كان قد تقبل منه أية هدية أو قرباناً من القرايين التي قدمها إليه . وكان الدمع يهطل من عيني قارون وهو يتوسل إلى هذا الإله . وفجأة تغيم السماء بعد أن كانت صافية وتهب العاصفة وتهمر الأمطار فتخمد كومة الحطب التي كان سيحرق فوقها قارون .

ولما شاهد كايروس ذلك أدرك أن قارون من الرجال الورعين المتعلقين بالآلهة لذلك أدناه منه وسأله : « أخبرني يا قارون من الذي حرضك على الخروج ضدي وبهذا أصبحت عدواً لي بدل أن تكون صديقاً ؟ » فأجابه قارون : « أيها الملك إنني صنعت ذلك لحظي التعس ولطيفة نفسك المتناهية ، فقد دفعني إلى ذلك الإله الذي استشرته ، فليس من أحد هو من البلاهة وعدم الحس والتقدير بحيث يؤثر الحرب على السلام ، ففي وقت السلم يدفن الأبناء آباءهم أما في الحرب فيدفن الآباء أبناءهم » .
ومهما يكن من الأمر فإن قارون قد علم أنه بخروجه لقتال الفرس فإن دولة كبرى سوف تنهار — كما وعدت بذلك النبوءة — وإن كان الذي حدث هو انهيار إمبراطوريته .

هذا ولم تكن النبوءات محصورة في اليونان وحدها بل كانت معروفة أيضاً في مصر ، بل هي في مصر أقدم تاريخاً منها في اليونان . فوحى آمون رع في مصر يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكان به طيف يمثل الإله يتحدث إلى الناس ، ويقبل منهم الأسئلة ويجيب عنها ، ويقال إن الإسكندر الأكبر عند ما زار معبد آمون رع في صحراء مصر خرج إليه هذا الطيف وخاطبه قائلاً : « إننى أعدك بأنك سوف تملك البلاد جميعاً وتخضع لك جميع الأديان » .

واشتهر أيضاً في البلاد المصرية وحى هليوبوليس ، وكان الناس يقدون إليه في كل بلد لاستشارة كهنته في أهم أمورهم . والمعروف أن الإمبراطور الرومانى تراچان أرسل قبل أن يشترك في حرب برثيا وفداً إلى هذا المركز التنبؤى لاستشارة كهنته في مصير هذه الحرب . وتذكر التواريخ أن الكهنة أجابوا إجابة صامته ، وذلك بأن أرسلوا إلى تراچان غصن كرم مكسور دون أى تعليق أو شرح . وقد قتل هذا الإمبراطور في هذه الحرب وحمل جثمانه إلى روما . وعند ذلك تذكر الناس نبوءة وحى هليوبوليس وقالوا لو كان تراچان يعتقد حقاً في هذه النبوءات لما أقدم على هذه الحرب بعد أن وصله هذا الغصن المكسور .

والظاهر أن أخبار النبوءات الغامضة هي التي وصلت إلينا دون النبوءات الواضحة . والواقع أنه كانت هناك نبوءات صادقة كثيرة قدمت لأفراد كثيرين ولكن لم يهتم أحد بتسجيل هذه النبوءات الشخصية بعكس الحال مع النبوءات السياسية الكبرى التي كان يسعى إليها الملوك والحكام .

ومهما يكن من الأمر فقد ظلت هذه النبوءات قائمة أجيالا طويلة وكانت معروفة أيضاً في العهد المسيحي حتى أن ترتوليان أحد آباء الكنيسة في القرن الثالث الميلادي قد أعلن أن العالم لا يزال مزدحماً بالنبوءات . وكانت الحياة الرومانية مليئة بهذه النبوءات وخاصة ما كان منها متصلاً بحياة القياصرة وأعمالهم وهذا هو السبب في اهتمام بعض المؤرخين بهذه التنبؤات .

لقد تنبأ العراف سبورينا Spurrina بما حدث ليوليوس قيصر في اليوم الخامس عشر من شهر مارس . وحذره من خطر عظيم لا يمكن رده سوف يقع في ذلك اليوم . وقد رأت كالبورينا زوجة يوليوس قيصر في منامها حلماً تشاء مت منه غاية التشاؤم؛ إذ رأت أن برج منزلها قد تهدم وأن زوجها قد طعن وهو بين ذراعيها . وكان يوليوس قيصر يشعر بالمرض فأثر المكوث في منزله في ذلك اليوم المشؤم يوم ١٥ مارس سنة ٤٤

قبل الميلاد . غير أن صديقه بروتس ذكر له أن جمعاً غفيراً من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظره بالمجلس فلا يصح له أن يخب آمالهم .

وفي أثناء الطريق إلى مجلس الشيوخ قابل قيصر العراف سبورينا وكان الوقت إذ ذاك حوالى الحادية عشرة صباحاً . فما إن رآه يوليوس قيصر حتى ابتسم له قائلاً : « ها قد حل اليوم الخامس عشر من شهر مارس ولم تحدث أية كارثة » فأجابه سبورينا « نعم قيصر ولكن لم يمض بعد هذا اليوم » .

وكلنا نعرف أنه لم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وكان يوليوس قيصر قد انتقل إلى العالم الآخر إثر طعنة نجلاء تلقاها من يد صديقه بروتس . وقال الناس في ذلك الوقت لو كان يوليوس قيصر يعتقد حقاً في هذه النبوءات لما اغتيل في يوم ١٥ مارس .

وكان من الطبيعي أن تعنى القياصرة بعد ذلك بهذه التنبوءات فقد لجأوا إلى مراكز الوحي المختلفة يستنبئونها الغيب في أوقات الحرب وفي أوقات السلم وفي كل أمر ذى شأن .

وكان بعض مشاهير الرومان لهم القدة على التنبؤ بالغيب نذكر منهم فيجولوس Figulus أحد أعضاء مجلس الشيوخ

بروما . فقد كان هذا الرجل يعد في نظر معاصريه أعلم الناس بالتنجيم . واهمه البعض أنه من المشتغلين بالفنون الخفية . ويدكرون أنه شاهد ذات يوم اكتافئوس وقد جاء إلى مجلس الشيوخ متأخراً بعض الوقت فلما سأله في ذلك علم منه أنه ولد له ولد في ذلك اليوم فصاح فيجولوس قائلاً : « لقد قدمت إلينا سيداً حاكماً » . ولقد اكتأب اكتافئوس عند سماعه هذا لأن الرومانيين في تلك الأيام كانوا لا يزالون يرون أنهم أمة ديمقراطية لذلك فكر اكتافئوس أن يقضى على هذا الوليد ولكن فيجولوس نصحه أن لا يقدم على ذلك لأنه من المحال أن يغير اكتافئوس من المصير المحتوم .

ولقد لعبت النبوءات دوراً هاماً في حياة أوغسطس ولد اكتافئوس ، ففي الوقت الذي كان فيه اكتافئوس على رأس جيش في تراقيا لم يفته أن يستشير الوحي هناك عن مصير ابنه . وبينما هو في المعبد يصب الخمر على المذبح وإذا باللسنة النيران تغمر المعبد وترتفع إلى عنان السماء . وأخبر كهنة المعبد اكتافئوس أن حادثاً مثل هذا قد وقع مرة واحدة وذلك عند ما كان الإسكندر الأكبر يقدم القرابين عند المذبح .

ويقال إن تيوجينس المنجم الروماني المشهور قد رغب في

قراءة طالع الطفل أوغسطس . فما إن ذكر الطفل تاريخ مولده حتى هب تيوجينس من فوق مقعده وركع عند قدمي هذا الطفل . وكان أوغسطس من ناحيته يعتقد في صدق طالعهِ ولذلك ما أن بلغ التاسعة عشرة من عمره حتى غادر المدرسة واعتلى عرش أكبر إمبراطورية معروفة في ذلك الوقت .

ولقد حذر وحى دلفي الإمبراطور نيرون من الرقم ٧٣ . ولقد فسر هذا نيرون بأنه سوف يحكم حتى يبلغ الثالثة والسبعين من عمره ولكن الواقع أن هذه الإشارة كانت تشير إلى حكم خلفه الإمبراطور جلبا الذي حكم عدة أشهر وكان وقتذاك في الثالثة والسبعين من عمره .

وقد دمر نيرون وحى دلفي إبان ثورة من ثوراته الجنونية ، لأنه رأى في وجوده إنتفاص لسلطانه ، وقد خشى أن يظن الناس أن أبولو إله دلفي أعظم من نيرون .

الفصل الثالث

التنبؤ بالغيب عند العرب^١

كانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية، فكان هناك الكهان والعرافون، وإن كانوا أحياناً يفرقون بين الكهانة والعرافة؛ فيقولون إن الكهانة مختصة بالأمور المستقبلية، أما العرافة فخاصة بالأمور الماضية. ومهما يكن من الأمر فإن المراد بهما هو التنبؤ واستطلاع الغيب. وكان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء، فكانوا يستشيرونه في كل أمر جلل من أمورهم ويتقاضون إليه في خصوماتهم، ويستطبونه في أمراضهم ويستفتونه في ما أشكل عليهم، ويطلبون منه تفسير رؤاهم ويستنبئون عنه مستقبلهم. ولهذا كله كانت منزلة الكاهن عندهم في أعلا المراتب، والكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين، وكان هذا هو شأن الكهان جميعاً في سائر الأمم القديمة. والرأى أن الكهانة ليست أصيلة عند العرب بل جاءتهم من بعض الأمم المجاورة وأغلب الظن أن الكلدانيين هم الذين نقلوا الكهانة إلى بلاد العرب مع ما نقلوه إليها من علم التنجيم. وما يؤيد ذلك أن الكاهن يسمى في العربية أيضاً «حازي» أو

« حَزَاء » وهو لفظ كلداني معناه الناظر أو الرائي أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . وقد اقتبس العرب بعد ذلك لفظ الكاهن من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصاً بعد أن دمرها طيطس عام ٧٠ للميلاد .

والكهانة بوجه عام تطلق على أنواع مختلفة من التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس الماء وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم .

وقد جعل العرب الكهانة على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه ، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه . فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرس السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « إلا من

خطف الحطفة فأتبعه شهاب ثاقب .

والصنف الثاني ما ينجر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد . والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحس . والصنف الرابع ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ويقولون إن الصنف الأول قد بطل بمجىء النبي صلى الله عليه وسلم وحرمة الكهان بعد بعثة النبي من كشف الغيب . وقد جاء في بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة ، فلا يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم ، لأن هذا من دلالات الكفر . وجاء في الحديث : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » . ويقولون عن الصنف الثاني إنه لا يعد وجوده .

وقد أفاضوا الكلام عن الصنف الرابع الذى يستند إلى التجربة والعادة وقالوا إن هذا نظير الأسباب التى يستدل بها الطبيب والفلاح والطبائعى على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكم بأنه عسر البرء ، وإذا رآه مستطيلاً حكم بأنه أسرع برءاً . وكذلك ما علم به الربان من أمور تحدث في البحر والرياح بعلامات تدل على ذلك من

طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقع مطر أو يحدث ريح كذا، أو يضطرب البحر في مكان كذا ووقت كذا. وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيبس في وقت كذا، وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل. وذهبوا أكثر من ذلك فقالوا إن هذا أمر لا يختص بالإنسان بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما جاء في كتب الحيوان. والفرس الرديء الخلق إذا رأى اللجام من بعيد نفر وجزع وعرض من يريد أن يلجمه علماً منه بما يكون بعد اللجام. وهذه النملة إذا خزنت الحب في بيوتها كسرتة نصفين علماً منها بأنه ينبت إذا كان صحيحاً وأنه إذا انكسر لا ينبت. والقط يدفن أذاه ويغطيه بالتراب علماً منه بأن الفأر تهرب من رائحة فيفوته الصيد، ويشمه أولاً فأن وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يوارى الرائحة والجرح، وإلا اكتفى بإيسر التغطية. وهذا الأسد إذا مشى في لين سحب ذنبه على آثار رجله ليغطيه علماً منه بأن المار يرى مواطئ رجله ويديه.

وجاء في كتب التاريخ أن الكهان العرب قد عرفوا نبأ سيل العرم قبل وقوعه ونصحوا أولى الأمر في البلاد بالعمل على اتقاء شره. وكان هذا في عهد عمرو بن عامر الذي تولى رئاسة ولد

قحطان . إذا كان أخوه « عمران » كاهناً عقيماً وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق فأنبأ أخاه بما رأى في كهانته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العرم . وبينما كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم إذ رأت سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئاً إلا أحرقتة . ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد وأتت زوجها الملك وهي تقول إن ما رأيته قد أذهب عنها النوم إذ رأت غيماً أبرق وأرعد طويلاً ، ثم أصعق فما وقع على شيء إلا احترق فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروع سكنوا من جأشها حتى ثابت إلى نفسها . ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفاً لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ - وهي دواب باليمن - منتصبات على أرجلهن ، واضبعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها أن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ووثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتدل على غير جدوى ، فاستعانت

بذنبيها وحشت التراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا . فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها في الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح . فلما أقبلت على زوجها ، ألقت الجاريتين على الفراش فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما فكهنت هذه وقالت : « والنور والظلماء والأرض والسماء ، إن الشجر لتألف ، وليعودن الماء كما كان في الدهر السالف » فسألها عن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شداد يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هي داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة » قال وما هي ويلك ؟ قالت « أجل أن لي فيها الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيئ به السيل » فألقى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا ظريفة ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد فإذا رأيت جرذا

(فأراً) يكثر بيديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفِرَ ، وأن قد وقع بنا الأمر . قال وما هذا الأمر الذي يقع ؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الشكل » فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى على قلبها خمسون رجلاً . . ! فكر إلى زوجته ، وأنبأها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم	وهاج لي من هوله برح السقم
من جرد كفحل ختريز الأجم	أوتيس صرم من أفاريق الغم
يسحب صخر من جلاميد العرم	له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحباً من الصخر قضم	كأنما يرعى خضيراً من سلم

فقلت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين الجنتين ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مظلمة ، لا تدخلها شمس ولا ريح . . . ! فلما فعل امتلأت الزجاجاة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد ؟ . . قالت : في سبع سنين . قال ففي أيها

يكون ! . . . قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لكتبه ، ولا تأتى عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد في غدها أو في أثناها . ورأى عمرو في منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع والحراب نازل . فكم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال اللأمر حتى أهانه ابنه وضربه ابنه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما . . . فصباح : واذلاه . . . وأقسم ألا يقيم بهذا البلد وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن في البلد الذى يرحل إليه فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليلق بقصر عمان المشيد » فكان الذى نزلوه أزد عمان فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلق ببطن مر » فكان الذين سكنوه خزاعة . . . إلى آخر ما جاء فى هذه القصة .

وتبين لنا القصة السابقة أسلوب الكهان فى تكهناتهم فقد كان لكهان العرب لغة خاصة بهم تمتاز بتسجيع خاص يعرف

بسجع الكهان مع تعقيد وغموض ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في مثله : هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة . ولعل الكهان كانوا يلجأون إلى هذا الأسلوب من القول تمويهاً على الناس بعبارات تحتل أكثر من وجه كما يفعل العرافون في الوقت الحاضر .

وقد اشتهر في بلاد العرب أيام الجاهلية كثير من الكهان والكواهن وأقدمهم شق بن أنمار ، وسطيح بن مازن ، وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . ويقال إن شقا هذا كان نصف إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . وأن سطيحا كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه إلا الجمجمة ووجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عتق ، وكان في عصره من أشهر الكهان . وقد ولد في يوم واحد هو وسطيح وكانا من المعمرين . ومن الكهان الذين نبغوا إبان النهضة العربية التي سبقت الإسلام : خنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدوسي . وكان من الكهان من ينسب إلى بلده أو قبيلته كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم .

أما الكواهن من النساء فإِنَّهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهي أقدمهن ولباء الكاهنة وغيرهما .

وكان هناك أيضاً إلى جانب الكهنة فئة أخرى من المتنبيين بالغيب وهم العرافون ، وقد كان منهم كثيرون في بلاد العرب وذكرهم الشعراء في أشعارهم فقد قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامة داوئى فإنك إن داوئتنى لطبيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا : شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد هو الأبلق الأسدى . وليس هناك اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة . ولعل الذى عليه رأى الأغلبية هو أن العرافة لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضى أو الحاضر وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده .

ومهما يكن من الأمر فإن العرب تسمى الكاهن عرافاً أيضاً وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب . والعراف عند العرب هو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها على نتائجها ، أى هى الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث

الآتية بالمناسبة. أو بالمشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا معلولين لأمر واحد، أو يكون ما في الحال علة لما في المستقبل كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور.

ومن أمثلة العرافة أنه كان في زمن هارون الرشيد عراف أعمى، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال، فسرق من خزانة الخليفة أشياء، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر، فقال إن المسئول عنه در وياقوت وزمرد في سفظ... فسأل الرشيد عن مكانه فقال العراف إنه في بئر، فوجدوه كذلك...!! وسئل العراف في ذلك، فقال وجدت نوى تمر، وطلع النخلة أبيض وهو كالدر، ثم يكون بساً وهو أخضر، وهو لون الزمرد، ثم يكون رطباً وهو أحمر، وهو لون الياقوت!! فلما سألتهم عن مكان المسروق، سمعت صوت دلو فعرفت أنه في بئر. فاستحسن الرشيد فراسته وأعطاه مالا جزيلاً.

ويدخل في باب التنبؤ بالغيب الفأل والطيرة والعيافة وكلها

أشياء ترمى إلى الكشف عن حوادث المستقبل استناداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً على أصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفوياً ، وقد جرى هذا في غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما .

والفأل أمر يدعو إلى الإقدام بعكس الطيرة فإنها تدعو إلى التشاؤم والإحجام . أما العياقة فهي زجر الطيور أى التحدث بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان . وكان العرب يزجرون الطير أو الحيوان أى يصيحون به أو يرمونه بحجر فإن ولاهم في طيره . ميامنه سموه سانحاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسره سموه بارحاً وتشاءموا منه فالسانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح وأهل التهامم بالضد من ذلك .

وكان العرب في الجاهلية يكثر من الزجر ثم شاع الفأل بعد ذلك في الإسلام ، وقد نهى النبي عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سفر » وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل . قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً يقول : يا سالم فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا .

وقد عرف عن عمر بن الخطاب أنه كان من الذين يجعلون من الألفاظ التي تقال عفواً موضع تهاؤل أو تشاؤم ، فمن ذلك أن رسولاً من ميدان نهاوند أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال : قريب فسأله عن أبيه فقال : ظفر فقال عمر متفائلاً ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وللعرب قصص وأخبار طويلة في الفأل والطيرة والعيافة ؛ من ذلك ما حكاه المدائني قال : خرج رجل من لهب — ولهم عيافة — في حاجة له ومعه سقاء من لبن ، فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب ، فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى ، فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم في الثالثة نعب الغراب وتمرغ بالتراب ؛ فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فإذا غراب على سدة فصاح به فوق على سلمة فصاح به فوق على شجرة فأنهى إليه فإذا تحت الشجرة كثر فلما رجع إلى أبيه قال له : ما صنعت ؟ قال سرت صدر يومى ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب قال : أثره وإلا لست بأبني قال : أثره ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال : أثره وإلا فلست بأبني قال : أثره ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ في التراب قال : اضرب

السقاء وإلا فلست بابني قال : فعلت فإذا أسود ضيخم ، قال :
ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً واقفاً على سدره ، قال : أطره وإلا
فلست بابني قال : أطرته ثم وقع على سلمة . قال أطره وإلا
فلست بابني ، قال : أطرته فوقع على شجرة قال : أخبرني بما
وجدت فأخبره . . .

وذكر التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة عن أبي الحسين
قال : اجتزت أنا وأبو طاهر بن نصر القاضي بشارع القاضي ،
نقصد دار قاضي القضاة أبي الحسين في علة التي مات فيها
لنعوده فإذا بثلاثة من الأعراب ركبان فشال أحدهم رأسه وقد
سمع غراباً ينعب على حائط دار أبي الحسين قاضي القضاة فقال
للنفسين اللذين خلفه : إن هذا الغراب ليخبرني بموت صاحب
الدار : . فقال له الآخر : أجل إنه لموت بعد ثلاثة أيام . فقال
الآخر : نعم ويدفن في داره . فقلت : أسمعت ما قالوا ؟ قال :
نعم هؤلاء أجهل قوم . وافترقنا فلما كان في ليلة اليوم الرابع
سحراً ارتفعت الصيحة بموت قاضي القضاة أبي الحسين ، فذكرت
قول الأعرابي وعجبت وحضرنا جنازته ودفن في داره . فقلت لأبي
طاهر رأيت أعجب من وقوع مقالة الأعرابي بعينها إيش هذا ؟ .
فقال : لا والله ما أدري ولكن تعال حتى نسأل عنهم ونقصدهم

ونستخبر منهم من أين لهم ذلك . فقال : كنا أياماً نسأل
عنهم وعن حلتهم من البلد فلانخبر ، إلى أن أخبرونا أنهم نزول
حلة من بنى أسد بباب حرب فقصدناهم ، فقلنا : هل فيكم من
يبصر الزجر ؟ فقالوا : أجل ثلاثة إخوة في آخر الحى يعرفون
بنى القائف ، ودلونا على أخبيتهم فجئنا فصادفنا أصحابنا
بأعيانهم ولم يعرفونا فأخبرناهم بما سمعناه منهم وسألناهم عنه
فقالوا : إنا وغيرنا نعرف نعيماً للغراب بعينه لا ينعبه في موضع إلا
مات ساكنه مجرباً على قديم السنين في البوادي لا يخطئون ، ورأينا
ذلك الغراب نعب ذلك النعب الذى نعرفه . فقلنا للآخر : كيف
قلت إنه يموت بعد ثلاثة أيام ؟ قال : كان ينعب ثلاثاً متتابعات
ثم يسكت ثم ينعب قلنا على هذا فحكمت بذلك . فقلت للآخر
وكيف قلت إنه يدفن في داره ؟ قال : رأيت الغراب يحفر
الحائط بمنقاره ورجليه ويحثو على نفسه التراب فقلت إنه في داره .
وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزة
بها ، فلقية أعرابي من نهد فقال : أين تريد ؟ قال : أريد عزة
بمصر ، قال : ما رأيت في وجهك قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق
بانة ينتف ريشه فقال : ماتت عزة ! فأنهى ومضى فوافى مصر
والناس متصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فبين من حبيب تعاشره
وقد اشتهر من بين العرب كثيرون في الزجر والعيافة كعراف
اليمامة والأبلق الأسدي والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم ممن لا
يحصى عدداً .

وكان هناك من بين العرب من أنكر الزجر ونحوه وذم من
اغتربه واعتمد في أمره عليه منهم ضابي بن الحرث وقد قال في ذلك
وما عاجلات الطير تدني من الفتى نجاحاً ولا عن ريثن ينجيب
ورب أمور لا تضيرك ضيرة وللقلب من مخشأتهن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
ومنها النابغة وقد روي أنه خرج هو وزياد بن سيار يريدان
الغزو فرأى زياد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى
النابغة . ولما رجع غانماً قال :

يلاحظ طيرة أبدأ زياد لتخسبه وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شيء »

يجده أحدكم فلا يصدقه » . وقال شراح الحديث إنه ليس في
سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه وإنما هو تكلف
بتعاطي مالا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله
على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانة جهل من فاعله .
وإنه على الرغم من ذلك فقد بقيت من هذا بقايا في كثير
من المسلمين . ومن العيب أن بعض القبائل العربية في الجاهلية
كانت لا تزوج بناتها إلا لمن اتصف بصفات خاصة منها معرفته
للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم كانت من الصفات العلية .
وكانت عند العرب غير ما ذكرنا وسائل أخرى يتوسلون بها
إلى معرفة الغيب كالطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى
والخط في الرمال . فكان الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج
حصيات قد أعدها عنده فيطرق بعضها ببعض فيلوح له حينئذ
ما يعلم به جواب السؤال . أما الخط في الرمال فكان الكاهن يأمر
غلامه أن يخط خطوطاً على رمل أو تراب ويكون ذلك منه في
خفة وعجلة لا يدركها العدو إلا حصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين
خطين وهو يقول « إبنى عيان . أسرعا البيان » فإن كان آخر ما
يبقى منها خطين فهو آية النجاح وإن كان قد بقي خط واحد فهو
علامة الخيبة والحرمان .

الفصل الرابع المنجمون والتنبؤ بالغيب

لم يكن للعرب في الجاهلية دراية بصناعة التنجيم، وظلوا على جهلهم بهذا العلم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض . ونستدل على ذلك أننا لا نجد في أشعار الجاهلية وأخبارها شيئاً يدل على علمهم بهذه الصناعة على وفرة ما جاء في هذه الأشعار والأخبار، من اشتغالهم بالكهانة والقيافة والزجر والطيرة وغير ذلك من أنواع التفاؤل والتشاؤم . على أن العرب الذين استقروا خارج الجزيرة العربية بعد أواسط القرن الأول قد قالوا بتأثير الكواكب في السعد والنحس على الأخلاق .

ومهما يكن من الأمر فقد شاعت النجامة منذ الماضي السحيق عند قدماء الشرقيين . ويعتبر الكلدان أساتذة العالم في علم النجوم فهم الذين وضعوا أسسه وأقاموا بنيانه، وقد ساعدتهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم فرصلوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الأبراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الكسوف والخسوف بآلات فلكية منذ أكثر من أربعين قرناً خلت .

وقد أخذ عنهم هذا العلم اليونانيون والآشوريون والمصريون

وغيرهم من أهل الحضارات القديمة . وفي القرن الخامس قبل الميلاد أغار الفرس على الكلدان وفتحوا بلادهم واستبدوا بهم فقتل ذلك على الكلدان فهاجر كثيرون منهم إلى البلاد المجاورة لهم وخاصة بلاد العرب التي كانت ملاذاً للمهاجرين من العراق ومصر والشام وذلك لامتناعها على الجيوش المغيرة بسبب فيافيها القفراء .

وكان في جملة المهاجرين إليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم فتعلم العرب منهم أحكام النجوم وأخذوا عنهم أسماءها كما عرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس . وعلى الحملة فإن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة .

ولم يكن للتنجيم شأن عند العرب إلا منذ قيام الدولة العباسية ، ولعل أول من اهتم بالتنجيم والنجوم هو أبو جعفر المنصور الذي أمر بترجمة الكثير من كتب هذا الفن . وقد سار خلفاؤه على منواله وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم بحيث كان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق . وكان الخلفاء يستشيرون المنجمين في كثير من الأمور الإدارية والسياسية ، فكانوا إذا خطر لهم أمر ذو شأن

ونخافوا مغبته استشاروا المنجمين ، فينظرون في حال الفلك
واقترانات الكواكب ؛ ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو عدمه .
ويعرف التنجيم عند العرب بأسماء مختلفة ، فهم يسمونه أحياناً
علم أو صناعة النجوم ، وأحياناً علم أو صناعة الأحكام ، وسماء
البعض علم النجامة . ويطلق على المشتغل بعلم النجوم أو التنجيم
الإحكامى ، أو المنجم وإن كان اللفظ الأخير يطلق أيضاً على
الفلكى .

وقد انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار
التنجيم . وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندى وإخوان الصفاء
وفخر الدين الرازى .

ومن أقوال المنكرين لهذا العلم أنه ليس في معرفة الكائنات
قبل وقوعها صلاح لإنسان من الناس ، لأن في ذلك تنغيصاً للعيش
واستجلاباً للهم واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها .
ويقول المؤيدون إن الإنسان إذا علم ما يكون من حادث في
المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها لا بأن
يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل
سائر الناس ، ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار ، ولحر
الصيف بأخذ السكن ، ولسنى الغلاء بالادخار ، ولواضع الفتن

بالهروب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم . ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا بالحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع .

ومن وجوه الإنكار أن النوى وهو أحد الأئمة المجتهدين وقد توفى عام ١٦١ للهجرة لقي المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الخدثان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشتري وأنا أرجو رب المشتري ، وأنت تغلو بالاستشارة ، وأنا أغلو بالاستخارة فكم بيننا . . . ؟

ويذهب المؤيدون لهذا العلم أن من نظر فى هذا العلم وفكر فى سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك والنظر إلى ما فيه وليس هذا ممكناً بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شىء من سوء أفعالها أو فساد آرائها استطاعت أن

تصعد في لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت
 فلك القمر سائحة في مقر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة
 تارة من الكون إلى الفساد وتارة من الفساد إلى الكون . والنظر في
 هذا العلم يعين على الترقى إلى ما هو أشرف وأجل فهو ينبه النفس
 من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

وقال منكروه إن أحكام هذا العلم وإن لم تبطل من أساسها
 فإنها لا تصح بأسرها وليس هذا بالهين اليسير ، وصحتها وبطلانها
 تتوقف على آثار الفلك . وقد يقتضى شكل الفلك في زمان ما ،
 ألا يصح من أحكام النجوم شىء وإن غاص أهلها على وقائعها
 وبلغوا إلى أعماقها .

ويرد على ذلك المؤيدون بقولهم إن الصناعة لا تبطل ولا تكون
 أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطار في استدلالاتهم ،
 فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهله في بعض
 استدلالاتهم أو أكثرها . لأن الله هو الذى نصب الأشخاص
 الفلكية وأجراها مجاريها وقد جعله الله معجزة لإدريس النبي ،
 وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالة صحيحة ، وقد يصيب الأطباء
 ويخطئون في قضاياهم باستدلالاتهم التى نصبوها في أكثرها ،
 فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، وهكذا أيضاً الفقهاء

والحكماء ، وأهل الفتوى فى أحكام الدين من الحلال والحرام ،
قد يصيبون أو يخطئون فى قضاياهم واستدلالاتهم التى نصبها لم
البارى من آيات كتبه المنزلة . فخطؤهم وزللهم لا يبطل العلم
والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان
بالإنسان لنقصه عن التمام .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف
به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه
فى قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء . وقد
ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الغابر حين أتى عليه قيام الحضارة
الغربية عامة ومذهب كوبر نيكوس المتوفى عام ١٥٤٣ بوجه
خاص . ومن أجل هذا ظل قائماً فى البلاد التى لم تغزها الحضارة
الغربية ، وإن افتقد جلاله الذى كان له فى العصور الوسطى .
ومن الملاحظ أن قضاة اليمن كانوا لا يزالون يزاولون صناعة أحكام
النجوم حتى عهد قريب بل لا تزال له آثار باقية فى تلك البلاد
حتى اليوم .

ومهما يكن من الأمر فقد كان للمنجمين مكانة ممتازة فى
بلاط السلاطين والخلفاء . وقد جاء فى كتاب وفيات الأعيان
لابن خلكان أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ،

استدعى منجماً وقال له : هل ترى فى علمك ملكاً يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذى يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله « بذلك سمئى أمى » وكتب وصيته . وقد كان جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين ، يلى المنجمين من حضرته ويستشيرهم فى أموره ، وكان نوبخت الفارسى يصحب المنصور ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبا سهل .

ويذكر المؤرخون أن المنصور لما حج حجة التى توفى فيها ، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين هم ببناء بغداد عام ١٤٥ هـ وضع أساس المدينة فى وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا فى حضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى والطبرى من المنجمين . ونستدل من هذا ومن روايات أخرى كثيرة أن بعض الحكام والخلفاء كانوا يعتقدون فى صحة أقوال المنجمين . وليس من شك أن هذا الاعتقاد لم يتكون إلا بعد أن خبروا المنجمين وتبينت صحة أقوالهم وتنبؤاتهم فى أحوال كثيرة .

وإذا كان المنجمون قد صدقت نبوءاتهم فى بعض الحالات فإن هناك روايات تدلنا على عدم تحقق نبوءاتهم فى أكثر

الحالات؛ من ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء مدينة بغداد عام ١٤٦ هـ أن طالعها يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة . وشاع ذلك حتى هنا الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهنيك منها بلدة تقضى لنا أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا القول في نفوس الناس موت المنصور بطريق مكة ثم المهدي بما سبذان ثم الهادي بعساباذ ثم الرشيد بطوس . فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار ظهر فساد قول المنجمين ولذلك قال الشاعر :

كذب المنجم في مقالته التي نطقت به كذباً على بغداد
قتل الأمين بها لعمرى يقتضى تكذيبهم في سائر الحساب
وقد مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغيرهم .

ومن ذلك اتفاق المنجمين عام ٣٥٣ هـ عند ما أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة ، وكان قد سبق مولاه المعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة ، وأمره إذ دخلها أن يبنى بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة

ويكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله . فجمع القائد جوهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين ألا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعه وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها أرصاد أولئك الجماعة ، فوضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة إلى الكوكب القاهر ، واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم ؛ وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية . فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ، ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف ، توهم الناس أن ما قال المنجمون من قبل حقاً لتبدل اللسان وحال الدعوة مستبقى . فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بنى العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس .

وقد وقف بعض علماء المسلمين من التنجيم موقفاً وسطاً فلا هو بالمؤمن به ولا هو بالمنكر له ، من ذلك ما حكاه التنوخى في

كتابه نشوار المحاضرة من أن أبا محمد عبد الله بن عباس
الرامهرمزي المتكلم أخبره قال : أردت الانصراف من عند أبي
على الحبائي - وهو من كبار المتكلمين - إلى بلدى فجثته مودعا
فقال لي : يا أبا محمد لا تخرج اليوم فإن المنجمين يقولون إن
من سافر في مثله غرق فأقم إلى يوم كذا وكذا فإنه محمود عندهم
فقلت : أيها الشيخ مع ما تعتقده في قولهم كيف تجيئ بهذا ؟
فقال : يا أبا محمد لو أخبرنا مخبر ونحن في طريق أن فيه سبعا
أليس كان يجب في الحكمة علينا ألا نسلك ذلك الطريق إذا
قدرنا على سلوك غيره وإن كان ممن يجوز عليه الكذب ؟ قلت :
نعم . قال : فهذا مثله ، وقد يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادات
بأن تكون الكواكب إذا نزلت هذه المواضع حدث كذا والأخذ
بالحزم أولى . قال : فأخرت خروجي إلى اليوم الذي قاله .

ولقد سبق أن ذكرنا أن علم التنجيم كان مزدهراً في العالم
القديم وخاصة عند البابليين والأشوريين وفي الهند ومصر والصين
واليونان وروما ، ولكنه تدهور حتى كاد يتلاشى في أوربا بظهور
المسيحية . غير أن الفتح الإسلامي لأوربا في القرنين التاسع
والعاشر قد أعاد لهذا العلم مكانته في القارة الأوربية حتى أنه
كان يعتبر في عهد دانتى من أسمى العلوم وأنبلها . وكان هناك

منجم خاص لكل ملك أو أمير في أوربا يستشير في كل أموره؛ فلا يقدم على عمل إلا بعد أن يقرأ له المنجم الطالع . بل والأكثر من ذلك أن بعض البابوات أنفسهم كانوا من المشتغلين بالتنجيم نذكر منهم البابا سلقستر والبابا يوحنا العشرين ويوحنا الحادى والعشرين وچوليوس الثانى وكليمنت الثامن وغيرهم . ولقد تنبأ مارسيليو فسينو Marsilio Ficino منجم دوق فلورنسه المعروف باسم لورنزو العظيم بأن واحداً من أولاد هذا الدوق ^{هو} وهو چيوڤانى ده مديسى — سوف يعتلى الكرسى البابوى . ولما اعتلى چيوڤانى هذا الكرسى البابوى تحت اسم ليو العاشر أصبح راعياً للمنجمين ونصيراً لهم .

ونجد أن عالماً دينياً كبيراً وفيلسوفاً من أشهر فلاسفة العصور الوسطى وهو توماس الأكوينى يعلن أن الأجرام السماوية هي السبب في جميع أحداث هذا العالم الدنيوى .

والواقع أن كل واحد في العصور الوسطى كان يعتقد في التنجيم على الرغم من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المنجمين . إن المنجمين الأوربيين الأول من أمثال كوبرنيكوس وتيخوبراهه وكبلر ، بل إن إسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية كانوا جميعاً من المهتمين بدراسة « العلم القديم » أى التنجيم كما

كان يعرف في ذلك الوقت . ويقال إن إسحاق نيوتن عند ما التحق بجامعة كمبردج عام ١٦٦٠ - وكان عند ذاك في السابعة عشرة من عمره، سؤل عما يريد أن يدرسه بالجامعة فقال: أريد دراسة الرياضيات لأنني أرغب أن اشتغل بالتنجيم .

ولم يكن رجال الكنيسة أقل تعلقاً بالتنجيم من العلمانيين . فقد أصيب رئيس أساقفة كنيسة القديس اندروز بإنجلترا بمرض أعيا نطس الأطباء الإنجليز فأرسل في طلب المنجم الرياضي المشهور جيروم كاردان من أوربا عام ١٥٥٢ . وقد قرأ هذا المنجم طالع الأسقف وكشف عن مرضه وعالجه حتى برىء . ولما انتهى المنجم من مهمته قال لرئيس الأساقفة : « لقد استطعت أن أبرئك من علتك ولكني لا أستطيع أن أغير من مصيرك، ولا أن أحول دون رأسك وحبل المشنقة » . وحدث بعد ذلك بثمانية عشر عاماً أن شق هذا الأسقف بأمر من لجنة التحقيق التي أنشأتها ماري كوين الوصية على عرش اسكتلندا .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المنجمون في أخطاء عديدة جسيمة منها تلك التنبؤات التي جعلت أهل أوربا يبنون الفلك استعداداً للهرب من الطوفان بالحديد الذي سوف يحل بالعالم كما قال المنجمون . وذهب المنجمون أيضاً في العصور الوسطى إلى أن

نهاية العالم سوف تكون في عام ١٥٨٤ وأكدهذا القول ليوفتيوس Leovituis منجم بلاط الأمير هنري أمير البلاتينات ؛ الذي قال إن الكواكب تنبئ بأن العالم سيفنى في عام ١٥٨٤ . بل إن كبلر كبير المنجمين والفلكيين في عصره قرأ الطالع للجنرال ولشتين عام ١٦٠٩ وأنبأه بأنه سوف يعيش حتى يبلغ السبعين من عمره ولكن ولشتين قد مات قبل ذلك بنحو تسعة عشر عاماً . ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد تحققت ، مثال ذلك ما ذكره المنجمون عن ذلك الطوفان الحربي الذي اجتاح العالم في القرن الثالث عشر . ففي ذلك القرن ألقى زعيم إحدى القبائل الرحل التي تقطن السهوب الشاسعة الواقعة إلى الشمال والغرب من الصين الرعب في قلوب الناس . فقد اجتاح هذا الزعيم بخفة وسرعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم بلاد آسيا وقهر دوق روسيا الأكبر وقضى على ملكه وعاث في بلاده فساداً . كان اسم هذا الزعيم « چنكيزخان » ولم يكن أحد في العالم في ذلك الوقت يعرف شيئاً عن هذا الزعيم الذي انقض على العالم كالصاعقة أو القضاء المحتوم . لقد كانت دعوات الناس في صلاتهم في ذلك الوقت « اللهم نجنا من غارات أهل الشمال » . لقم كان هذا الفاتح الجبار في الواحد والأربعين من عمره عند ما

خرج في حملته التاريخية الهائلة وكانت إمبراطوريته التي كونها
بحد السيف تمتد من المحيط الهادى حتى نهر الدنييبر .

ولعل القارئ يسأل وما صلة ذلك بالتنبؤ بالغيب الذى هو
موضوع هذا الكتاب ؟ إن لذلك صلة وثيقة كما سندكر فيما يلى :
فى مستهل عام ١١٧٩ وجد كثيرون من المنجمين أن الطوالع
تدل على أن كارثة هائلة سوف تحل بالعالم وبالإنسانية ورأوا
أن من واجبهم أن ينبهوا العالم إلى هذا الخطر الذى على وشك
الحدوث ، فكان سكان أوربا أجمعين ينظرون إلى المستقبل
نظرة ملؤها الخوف والوجل ، لأن المنجمين ذكروا أن هذه الكارثة
سوف تحل عام ١١٨٦ . ولم يكن هذا الخوف مقصوراً على
أهل أوربا وحدهم بل كان شائعاً فى جهات أخرى غير أوربا .
فالشاعر والمنجم الفارسى المعروف « أنورى » قد تنبأ بعاصفة
كاسحة فى السادس عشر من شهر سبتمبر عام ١١٨٦ ،
لأن اجتماع خمسة كواكب فى برج الميزان فى تلك الليلة هو الذى
دفع أنورى إلى التنبؤ بهذه النبوءة على الرغم من أن الليلة التى قال
عنها أنورى أن عاصفة كاسحة قد حدثت فيها كانت ليلة هادئة .
وقد سخر أنورى من نفسه لهذا القول أو التنبؤ ولكن تبين
بعد ذلك أن چنكيزخان زعيم التتر الذين اجتاحتهم العالم قد ولد فى

تلك الليلة التي قال عنها أنورى وعلى ذلك تكون نبوءة أنورى صحيحة وإن لم يفهم مدلول هذه العاصفة الكاسحة في حينه . ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد صدقت وتحققت ، من ذلك أن بيكودلا ميراندولا وهو من أشهر علماء عصر النهضة في إيطاليا وكان من المتعصبين ضد التنجيم والمنجمين حتى نعته البعض بأنه نقمة المنجمين ، قد تنبأ له ثلاثة من المنجمين أنه سيموت وهو في الثالثة والثلاثين من عمره . وكان من أمر هذه النبوءة أن تحققت بالضبط كما قال هؤلاء المنجمون إذ توفي بيكو في اليوم بل وفي الساعة التي تنبأ بها ، فكان ذلك أكبر نصر للمنجمين الذين حاربهم بيكو طوال حياته . وهناك منجم آخر يدعى پير دلى Pierre d'Ailly قد تنبأ بالفترة العصيبة التي سوف تمر بها فرنسا ابتداء من عام ١٧٨٩ وكان ذلك قبل حدوثها بأربعمئة سنة .

وقرأ أحد المنجمين الإيطاليين ويدعى جوليانو دل كارمن الطالع للدوق السندرو ده مديسى أول دوق لفلورنسة ، فوجد أن هذا الدوق سوف يُغتال وأن الذى سيغتاله هو ابن عمه لورنزاшиو . ورأى المنجم أن من واجبه أن يخبر الدوق بذلك على الفور ، ولكن الدوق استخف بقول المنجم وابتسم لهذه المخاوف التي

تساوره. فقد كان أهل فلورنسة أجمعين يحبون الدوق ويلتفون حوله . ورأى أحد حراس الدوق أيضاً في منامه أن الدوق قد اغتيل على يد رجل ضعيف قميصه حتى إن صورته قد علقته في مخيلته . وفي الصباح قص الجندی هذا الحلم على سيده وفي أثناء ذلك دخل لورنزاшиو على الدوق فصباح الجندی ، هذا هو الرجل الذى شاهدته فى منامى فما كان من الدوق إلا أن صرف الجندی بعد أن أنبه على هذا القول . وفى نفس ذلك اليوم قتل لورنزاшиو الدوق أثناء صعوده درجات الكنيسة .

وفى عام ١٤٦٠ نشر جون كابسترانو كتاباً بعنوان « علم الفلك » ذكر فيه هذه النبوءة التالية وقال إنها ستحدث عام ١٦٢٢ :

« إن أسد نصف الليل الأكبر سوف يخرج من عرينه ولكنه لن يرجع ثانية إليه وإن يكن قد قام بما فرض عليه . سوف يقول كثيرون من يعدون أنفسهم من الذين أوتوا الحكمة « إنه لا يستطيع ذلك » ويقول آخرون « ألم نخبركم بذلك مقدماً ؟ أما الذين سوف يقاسون أكثر من غيرهم فسيتجاهلون الأمر وينظرون إلى هذا الأسد على اعتبار أنه ديك لا ينحشاه أى صقر . ومهما يكن من الأمر فإن هذا الأسد سوف يزأر فى عام ١٦٢٢ »

بصوت عال بحيث تهتز له الأرض ويفزع منه جميع البشر .

وقد تحققت هذه النبوءة في عام ١٦٣٢ إذ خرج في ذلك العام جوستاف أدولف أسد السويد وكان له الشأن الأكبر في حرب الثلاثين سنة . وهو المدافع الأكبر عن المذهب البروتستانتي وأوقع الهزيمة بكل من الجنرال تيلي Tilly والجنرال وولنشتين Wallenstein وهما من أشهر قوادآل هابسبورج المدافعين عن المذهب الكاثوليكي . ولم تكن السويد ولا أية دولة أخرى من الدول الإسكندنافية لها أى شأن يذكر في التاريخ الأوربي في عام ١٤٦٠ وهو العام الذى نشر فيه كابسترانو نبوءته المذكورة . والمعروف أيضاً أن تيخوبراهة Tycho Brahe (١٥٤٦ - ١٦٠١) أعظم الفلكيين في القرن السادس عشر كان يعتبر كذلك من أعظم المنجمين ، فقد كرس حياته للتنجيم وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره . وكان ينظر إلى الفلك والتنجيم على اعتبار أنهما شىء واحد وكان هذا هو رأى الكثيرين من علماء ذلك العصر . لقد اضطر تيخو إلى دراسة التنجيم سراً لأن أبواه كانا يرغبان فى أن يصبح ولدهما محامياً . وتمكن تيخو فى عام ١٥٧٧ - وكان لا يزال شاباً من أن يضحده نظرية أرسطوالتى كانت متحكمة فى العقول زماناً طويلاً ومؤداها

أن السموات محدودة ومحاطة بدائرة صلبة . وقد وصل إلى ذلك بدراسة المذنب الذى ظهر فى ذلك العام . بل لقد كان تيخو فى السابعة عشرة من عمره فقط عندما تنبأ فى عام ١٥٦٣ بالطاعون الكبير الذى اجتاح أوروبا عام ١٦٦٥ ، وقد قال السير دافيد بروستر David Brewster وهو من أعظم علماء القرن التاسع عشر أن تيخو لا يتفوق عليه أحد من الفلكيين سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث .

لقد تنبأ تيخو هذا أيضاً بمجىء جوستاف أدولف وذلك من ملاحظته لنجم جديد ظهر فى برج ذات الكرسي Cassiopia عام ١٥٧٢ . فقد ذكر أن أميراً شجاعاً على وشك الظهور وسوف تبهر جيوشه ألمانيا بأسرها ولكنه سوف يختفى هو نفسه عام ١٦٣٢ . والمعروف أن جوستاف أدولف لم يولد إلا عام ١٥٩٤ وقد قتل عام ١٦٣٢ فى موقعة لوتزن .

وكان فى بلاط الملكة إليصابات ملكة إنجلترا منجم يدعى جون دى John Dee وفى ذات يوم استدعى هذا المنجم على عجل لأن جلالة الملكة كانت تريد أن تستوضح منه عن بعض الأمور التى تشغل بالها . لقد ذكر منجم شاب يدعى جولد ماير أن جوستاف أدولف سوف يفقد حياته فى

لوتزن عام ١٦٣٢ . وكانت الملكة إليصابات هي وحاشيتها يهمنها موت جوستاف هذا الذي أصبح خطراً يهدد ملكها ولكنها لم تكن تثق في قول هذا المنجم الشاب . ولكن لما توفي جوستاف فعلا في عام ١٦٣٢ في لوتزن أصبح هذا الشاب منجماً شهيراً وكافأه الملك فرديناند الثالث وقربه إليه .

فليس بعجيب إذاً أن نرى الملوك والأمراء في أوروبا في ذلك العهد يحتفظون في بلاطهم بالمنجمين ويحيطونهم بمظاهر التكريم والتبجيل والتعظيم ويستشيرونهم في كل أمر هام . فنجد أن رودلف الثاني إمبراطور النمسا كان شديد الرغبة في أن يكون تيخو براهة منجمه الرسمي لذلك استدعاه إلى بلاطه ومنحه راتباً ضخماً وأرضاً يستغلها وابنتى له مرصداً خاصاً زوده بجميع آلات الرصد . وكان رودلف هذا يزهو بأن لديه الجداول الرودلفية وهي الجداول الفلكية التي وضعها تيخو وأصبحت تحمل اسم رودلف وكان الفلكيون يستعملونها بكثرة في ذلك الوقت . وقد سمح رودلف لمنجمه تيخو أن يستعين بكبلر Kepler في أبحاثه الفلكية وهو الرجل الذي ذاع صيته في الفلك بعد ذلك حتى كادت شهرته تغطي على شهرة تيخو براهة .

وچون كبلر هذا من أعظم الفلكيين الذين ظهروا في العالم

كما كان أيضاً من أعظم المنجمين . ولقد تنبأ كبلر هذا بمقتل
ولنشتين ولكنه أخطأ في تحديد التاريخ بالضبط . وهو كفلكى
قد وضع القوانين الفلكية التى تنسب إليه وهى التى مكنت
بعد ذلك السير إسحاق نيوتن من الكشف عن قانون الجاذبية .
على أن هذا الفلكى قلما كان يخطئ كمنجم فى تنبؤاته . فقد
ذكر فى تقويمه الفلكى لعام ١٦١٩ أن الإمبراطور مτίας
سوف يموت فى شهر مارس من ذلك العام . وقد توفى بالفعل
هذا الإمبراطور فى العشرين من شهر مارس سنة ١٦١٩ .
وكان كبلر إذا قرأ طالع فرد من الأفراد فكأنه يرسم له
صورة واضحة دقيقة وكأنها بريشة المصور العالمى ومبرانت .
لقد قرأ كبلر طالع دوقه فريدلاند (زوجة ولنشتين) ولم يكن
قد رأى هذه السيدة من قبل ولكنه ذكر وصفاً دقيقاً لمنظر
هذه الدوقة ولصفاتها المميزة لها ولزاجها الخاص كل ذلك
بشكل دقيق للغاية ، الأمر الذى دفع ولنشتين أن يتخذ من
كبلر منجماً خاصاً له . وكان معنى ذلك فى تلك الأيام أن
يأخذ هذا المنجم راتباً ضخماً ويقطن فى منزل أنيق ويستمتع
بوافر العناية والتكريم . على أن هذا الحظ الذى واثى كبلر قد
جاءه متأخراً لأن كبلر قد توفى بعد ذلك بستين :

لقد كان الأمراء والحكام في أوروبا يطمحون في أن يكون لكل واحد منهم منجم مثل كبلر إذ ما معنى الحياة في نظرهم دون منجم ماهر ينبئهم بما ستأتي به الأيام من أحداث ؟ .
 ففي عام ١٦٢٠ تقدم السير هنرى واتون سفير جيمس الأول ملك إنجلترا إلى كبلر بعروض سخية ولكنه أخفق في سفارته ولم ينجح في إغراء هذا الفلكي الشهير على الذهاب إلى إنجلترا إذ أثر كبلر العوز على أن يعيش في بيئة غريبة عليه في كل شيء .

على أن إنجلترا كانت في الوقت الذي رفض فيه كبلر أن يذهب إلى هناك تمهد لمنجمها الخاص . فإنه في نفس العام الذي قابل فيه السير هنرى واتون المنجم كبلر وعرض عليه الذهاب إلى لندن—وفد على هذه المدينة شاب قوى البنية من أهل الريف . وكان في ذلك الوقت في الثامنة عشرة من عمره على حظ قليل من العلم وعلى دراية باللغتين اليونانية واللاتينية وقد جاء إلى لندن سعياً وراء الرزق . واشتغل هذا الشاب في بداية أمره في بعض المهن الحقيرة ثم جرت الصدفة بعد ذلك إلى الاتصال بالدكتور سيمون فورمان Simon Forman وكان من المشتغلين بالعلوم الخفية فحبب هذا العالم للشاب وكان يدعى ليللى Lilly

دراسة التنجيم ، وتزوج هذا الشاب بعد وفاة أستاذه من أرملة
وكانت على حظ من الثراء فتمكن من دراسة التنجيم على
يد بعض المشتغلين بهذا العلم .

وقد أخذ هذا الشاب منذ عام ١٦٤١ ينشر تنبؤاته التي
قابلها المثقفون في ذلك الوقت بالضحك والسخرية ولكن كثيراً
من عليه القوم الإنجليز كانوا يذكرون بعد ذلك تنبؤاته بالإعجاب
ومن بينهم شارل الأول وكرومويل ، بل كان ليللى هذا في
وقت من الأوقات يعتبر المنجم الخاص لكرومويل .

ومن الأسباب التي أدت إلى شهرة ليللى هذا تنبؤه بالطاعون
الأعظم وبحريق لندن الشهير . ومن المعروف أن البرلمان
الإنجليزي عند ما أخذ يبحث عن أسباب حريق لندن الهائل
الذي حدث عام ١٦٦٦ استدعت اللجنة القائمة بهذا البحث
ليللى وسأله ما إذا كان تنبؤه هذا قائماً على علمه بمؤامرة كانت
تدبر لهذا العمل أم قائماً على حسابات فلكية . وقد أقنع
ليللى اللجنة أنه تنبؤه هذا كان قائماً على حسابات فلكية
دون غير . وأخذ ليللى هذا يصدر التقاويم الفلكية التي نال بسببها
شهرة فائقة وحصل من ورائها على ثروة كبيرة .

الفصل الخامس

التنبؤ بالغيب في أوروبا

مر وقت في العصور الوسطى كان فيه أهل أوروبا وخاصة البلاد التي تعرف الآن باسم ألمانيا والنمسا يعملون بجهد ونشاط وفي أيديهم الفؤوس والمعاول في بناء الفلك على نحو ما كان يصنع نوح لكي يعتصموا بها من الهلاك غرقاً . كان الناس يسرعون في بناء تلك السفن وقلوبهم مملوءة فزعاً لأن واحداً من العرافين المشتغلين بعلم التنجيم ويدعى جيرهان ستوفلر Johann Stoffer قد أعلن بناء على حساباته التي لا يتطرق إليها الخطأ أن فيضاناً آخر على مثال فيضان نوح سوف يجتاح أوروبا بأسرها ويهلك أهلها أجمعين ، فلم يكن أمام الناس إلا أن يبحثوا عن وسيلة تعصمهم من هذا الفناء المحقق . غير أن هذا الفيضان المزعوم لم يتحقق ، بل قام عراف آخر أكثر شهرة من العراف الأول هو جورج تنستتر Tannenstetter من أهل فينا وأخذ يفند ادعاءات ستوفلر وأعلن أن ليس هناك ما يدل على حدوث مثل هذا الفيضان وأن نبوءة ستوفلر هذا كاذبة .

كان ذلك في القرن السادس عشر ، أما اليوم فلو قام منجم أو عراف وأعلن مثل هذه النبوءة الخاصة بنهاية العالم لقابلها الناس بالسخرية والابتسام وقد لا يحفل بها أحد البتة إلا ضعاف القلوب والعقول ، أما في العصور الوسطى فلم تكن مثل هذه النبوءة تمر دون أن تحدث الفزع والهلع في قلوب الناس لأنه كانت هناك فكرة شائعة متأصلة في النفوس وهي أن الدنيا قد قاربت نهايتها بل إن هذه الفكرة كانت في القرن العاشر الميلادي جزءاً من العقيدة العامة التي يعتنقها أهل أوروبا. لقد كان الناس في ذلك العصر يتطلعون إلى نهاية العالم كما نتطلع نحن أبناء القرن العشرين إلى السماء انتظاراً لدلائل الغيث بعد فترة من الجفاف . وقد ذكر معظم العرافين عام ٩٩٩ على أنه التاريخ الذي سوف تحدث فيه هذه الطامة الكبرى .

كان الناس يتوقعون أن يكون يوم الحشر في بيت المقدس لذلك كان عدد الحجاج المتجهين ناحية المشرق في عام ٩٩٩ من الكثرة بحيث كانوا يشبهون بجيش عروم هائم على وجهه . لقد باع معظم هؤلاء الحجاج جميع ما يملكون من حطام الدنيا قبل أن يغادروا أوروبا في طريقهم إلى بيت المقدس وأخذوا يعيشون على دخل الأراضي المقدسة .

لقد أهمل الناس تشييد المباني العامة أو إصلاحها إذ ما الداعي إلى ذلك ونهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وكانت النتيجة أن أصاب التلف والدمار الكثير من هذه المنشآت العامة بل وتهدم أغلبها ولم ينبج من هذا المصير المفجع الكنائس وبيوت العبادة .

لقد اتجه إلى بيت المقدس الأمراء والفرسان ورجال الدين والعبيد والجميع يسرون صحبة واحدة ومعهم أولادهم وأزواجهم ينشدون الأناشيد والترانيم وهم في طريقهم وعيونهم متجهة إلى السماء في خوف وتضرع ووجل يتوقعون في كل لحظة أن تنفجر السماء ويهبط منها السيد المسيح .

ولما لم تحن نهاية العالم في القرن العاشر توقع الناس من جديد أنها سوف تحين في القرن الحادى عشر أو الثانى عشر أو بعد ذلك إذ لا بد أنها آتية لا محالة. وأصبح تعلق الناس بهذه الساعة الأخيرة هو الأمل الثانى لهم بعد التعلق بالحياة . لقد أخذ المنجمون في وقت من الأوقات يرسلون الأنبياء إلى جميع البلاد معلنين أن نهاية العالم وفناء الجنس البشرى سوف يكون في عام ١١٨٦ . غير أن هذا الحادث الجلل لم يقع وصار يؤجل من وقت لآخر وكأنه تمثيلية كبرى تؤجل الحين بعد الحين .

إن العرافين في الوقت الحاضر ومفسري النبوءات الكثيرة الواردة في الكتاب المقدس أو التي ينطوي عليها سر الهرم الأكبر يقولون إن « نهاية الزمن » تعني أنه ستكون هناك تغيرات كبيرة جوهرية في العالم دون أن يعني هذا نهاية العالم إنما يعني عصراً جديداً وليس فناء العالم وكل ما فيه .

وقد ظهر قبل العهد المسيحي مجموعات من كتب التنبؤات تناولتها أيدي الصفوة المثقفة من اليهود ذوى العقول المستنيرة الذين نهلوا من الثقافة اليونانية . وكانت هذه الكتب تنبئ بمجيء عصر سوف تسود فيه العدالة بين الناس ويعيش الناس في سلام ووثام متحابين متعاونين ، وأن الأرض سوف تخرج طياتها من فاكهة مختلف ألوانها وأن المدن سوف تعج بالطيبين الأخيار من الناس . وسوف تخلو الأرض من الزلازل والحروب والمجاعات .

وفي صدر العصر المسيحي أضاف المسيحيون إلى هذه التنبؤات التي تبشر بالمدينة الفاضلة تنبؤات أخرى تشير إلى أن العالم سوف يمر بعصر ذهبي تسوده المحبة والرخاء والسلام . وكان الرومان من ناحية أخرى لا يحفلون بهذه التنبؤات المختلفة وفي عهدهم ظهرت نبوءات أخرى تنبئ بزوال

الإمبراطورية الرومانية ولكنهم سخرُوا من هذه التنبؤات لأنهم كانوا يعتقدون أن الإمبراطورية الرومانية عبارة عن كيان أو نظام أبدي لا يمكن أن يزول ولذلك نجدهم يحفظون هذه المجموعات التنبؤية في الكابيتول بعيدة عن متناول أيدي الناس بل إنهم سنوا من القوانين في عام ٤٠٥ للميلاد ما تفرض الموت على من يعرف عنه أنه اطلع على هذه الكتب المليئة بأخبار الغيب. ولذلك اتخذت التنبؤات بعد ذلك في أوربا وجهة أخرى سندكرها فيما يلي .

إن من الأسباب التي جعلت التنبؤات في العصور الوسطى تتسم بهذه السمة المحزنة المفزعة أن الأشخاص الذين كانوا يقرأون الكتب المقدسة كانوا يقرأونها قراءة حرفية في لغاتها القديمة كما أنه كانت تراود أذهانهم فكرة مجيء المسيح الدجال والمسيح الدجال يعد سبباً آخر من أسباب هذا الفرع المزمّن العام الذي كان يهدد أهل العصور الوسطى .

لم يكن هناك خبر عن موعد ظهور هذا المسيح الدجال غير أن نفرًا من كبار العالمين ببواطن الأمور اتفقوا على أن المسيح الدجال على وشك الظهور . ونذكر أنه في عام ٣٨٠ أعلن مارتن Martin أسقف تورز بتهيب ووقار أن المسيح

الدجال يعيش بالفعل وإن كان لا يزال صبيًا . وفي عام ١٠٨٠ أى فى الوقت الذى كان فيه أهل أوربا يعتقدون فى زوال العالم — ذكر أسقف فلورنسه مؤكداً أن المسيح الدجال قد ولد . وبعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون أى فى عام ١٤١٢ رأى أحد كبار رجال الوعظ المسيحيين أن من واجبه أن يكتب للبابا بنديكت Benedict الثالث عشر منبئاً أن المسيح الدجال قد بلغ بالفعل التاسعة من عمره . وقال كثيرون غير هؤلاء إنهم رأوا الرؤى التى تشير إلى قرب ظهور المسيح الدجال وإنه أصبح من الضروري أن يعد المؤمنون أنفسهم لهذا القتال الرهيب الذى على وشك الوقوع .

وتحوى بعض المؤلفات القديمة سلسلة من الصور تمثل ولادة وحياة وموت رجل الشر (المسيح الدجال) . بل إننا نجد فى عهد متأخر أى فى منتصف القرن التاسع عشر أن العرافة سيجوزفين لامرتين — وهى عرافة مشهورة من أهل اللورين بفرنسا — تتكهن بأن المسيح الدجال سوف يولد فى عام ١٩٠٠ ولو كانت نبوءة هذه العرافة صحيحة لكان المسيح الدجال الآن يملأ الأرض جوراً وظلماً وظلاماً .

ومهما يكن من الأمر فإنه فى تلك العصور الوسطى قد

اختلفت النبوءات الصادقة بالأخرى الكاذبة حتى كان من الصعب التفرقة بينها . والواقع أن شعور الناس بالإثم والخطيئة والانحلال قد انعكس في صورة التنبؤ بالعقاب الذي لا مفر منه والنوازل التي سوف تحل بالبشر .

وكان هناك إلى جانب هذه النبوءات العامة التي كان يعتقد فيها المسيحيون بوجه عام نبوءات خاصة بكل دولة من الدول الأوروبية .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية التي ظلت على قيد الوجود حتى سقوط عاصمتها القسطنطينية في يد الترك عام ١٤٥٣ غنية بصفة خاصة بهذه النبوءات .

ففي القرن الحادي عشر انتشرت في القسطنطينية بعض النبوءات التي تنسب إلى متوديوس Methodius أسقف بطراء الذي استشهد في أوائل القرن الرابع إبان حكم الإمبراطور ديوقلتيان . ففي ذلك العهد البعيد ظهرت بعض التنبؤات تقول إن الإسماعيليين أو العرب سوف يقهرون كثيراً من البلاد المسيحية عقاباً لرجال الدين والعلمانيين على السواء على ما ارتكبه من خطايا وآثام . وقد ترددت على الألسن هذه النبوءات طوال قرون عدة وتحققت بالفعل بعد ذلك بأربعة قرون . وكانت

هناك نبوءة أخرى تذكر أن الترك سوف يروون ظمأ جيادهم من مياه نهر الرين . والذي حدث بعد ذلك أن المغول بقيادة جنكيز خان قد اجتاحتوا آسية وأوربا في القرن الثالث عشر وسقوا جيادهم من عدة أنهار أوربية وإن لم يكن منها نهر الرين على التحقيق .

وتنبأ الإمبراطور الفيلسوف ليو Leo في القرن التاسع بفتح المسلمين للإمبراطورية البيزنطية وقد تحققت هذه النبوءة بالفعل بعد ذلك بستة قرون تقريباً . وقد عثر قبيل استيلاء الترك على الدولة البيزنطية في دير بالقسطنطينية على لوحة تنسب إلى الإمبراطور ليو مبيناً بها في تعاقب صحيح أسماء الأباطرة والبطارقة في هذه الدولة طوال ستة قرون انتهت بزوال هذه الإمبراطورية . ويستدل من هذه اللوحة أيضاً أن قسطنطين سوف يكون آخر أباطرة هذه الدولة . وبالفعل قد تحققت هذه النبوءة وكان الإمبراطور قسطنطين بليولوجوس الذي لقي حتفه عند ما استولى الترك على مدينة القسطنطينية آخر أباطرة بيزنطة .

والواقع أن النبوءات لم تختفي قط من هذه الإمبراطورية البيزنطية . لقد كانت هناك تنبؤات كثيرة عن حكم الأباطرة ومستقبل الإمبراطورية منها تلك النبوءة التي ظهرت قبل عام

١٤٥٣ بقليل وجاء فيها أن العدو سوف ينقض على المدينة ويقضى على عظمته وبهاؤها ويدنس معابدها ونسائها ويجعل مبانيها طعمة للنيران وذلك بسبب الدم الذى يسفك والجرائم التى ترتكب فى بيزنطة . وقد تحقق ذلك كله إبان حصار القسطنطينية ثم وقوعها فى أيدي الترك .

ومن حسن طالع الإمبراطور الفيلسوف ليو أن معظم نبوءاته قد ظهرت وعرف بها الناس بعد وفاته بزمان طويل ولذلك لم يكن هدفاً لتلك المضايقات والاعتداءات التى كثيراً ما كانت تصيب هؤلاء المتنبئين خصوصاً إذا تنبأوا بأشياء لم تصادف هوى فى نفوس الناس . وبهذه المناسبة نذكر حالة نبوءة من النبوءات . إبان جزاء قائلها الموت حرقاً .

حدث فى ربيع عام ١٥١٧ أن ظهر فى روما — وكانت الأمور فيها تسير على أحسن ما يكون — راهب فقير أخذ يجوب شوارع هذه المدينة العظيمة صائحاً : « الويل الويل لهذه المدينة التى سوف تقع فريسة فى أيدي الأمم فيما وراء الألب لهذه الخطايا المنكرة التى يرتكبها البابوات والأساقفة . » لقد كانت روما فى ذلك الوقت مدينة مزدهرة يعمها الرخاء والأمن والسلام إذ لم تكن قد تعرضت لأية غزوة خارجية منذ

أكثر من خمسة قرون . وكانت في ذلك الوقت تزدهم بالسكان والتجار والكهنة وجنود البابا والحراس والأساقفة . وكان البابا كليمنت الثامن يترجع على عرش البابوية في قصره المنيف والعالم كله في أمن وسلام . وما هو ، راهب خرب العقل كانت له الجرأة أن يسير في طرقات هذه المدينة العظيمة وينادى بالويل والثبور ويتنبأ بدمارها والقضاء عليها . وما أن سمع البابا بنجر هذا الراهب حتى قبض عليه وزج به في السجن ، ثم أفرج عنه بعد فترة قصيرة ولكن على شرط أن يغادر المدينة على الفور بحيث إذا عاد إليها ثانية أغرق في مياه نهر التير .

عاد بعد ذلك الراهب — وكان يدعى بارتلوميو براندانو — مرة ثانية إلى روما وصنع نفس الأمر الذي صنعه من قبل منادياً بانتقام إلهي عادل من المدينة ورجال الدين ناعثاً البابا كليمنت بأحق الصفات . وكان أن قبض ثانية على هذا الراهب وألقي به في نهر التير ولكنه لم يغرق فأمسك به وزج في السجن . وقد حدث بعد ذلك بعشر سنوات أن أغار جماعة من الجنود المرتزقة للإمبراطور شارل الخامس تحت قيادة شارل ده بربون على مدينة روما وقاموا بالكثير من أعمال السلب والنهب والتقتيل . وكان أن اضطر البابا كليمنت إلى عقد

معاهدة تسليم مخزية مع الإمبراطور شارل . وأطلق جنوده سراح الراهب براندانو بعد أن ظل في سجنه سنوات عدة لقي فيها الكثير من أنواع التعذيب والإرهاق نتيجة لهذه النبوءة التي قال بها، ولعل البابا كليمنت نفسه قد جال في خاطره ذكرى هذا الراهب عند ما وقعت الواقعة وشاهد مدينة روما نهباً مستساغاً لهذه الطغمة من الجنود المرتزقة .

كانت هناك نبوءات كثيرة مثل هذه تدور على الألسن أكثر من ألف عام وكلها تدور حول مصير روما وأهلها لذلك كان نهب مدينة روما على يد شارل ده بربون أمراً متوقعاً .

والواقع أن هذه التنبؤات التي صدرت ضد روما إنما كانت موجهة إليها على اعتبار أنها ترمز إلى الكنيسة والبابوية ، ولم تكن هذه التنبؤات تصدر عن عرافين محترفين فحسب بل كانت تصدر أيضاً عن رجال من أهل الكنيسة تنبأوا بما سوف يحل بالكنيسة من السخط والهوان للذنوب والخطايا التي وقع فيها رجالها كالمتاجرة بالرتب الكهنوتية والانغماس في الملاذ والترف وهي الخطايا التي وقع فيها كثير من البابوات ورجال الدين . ومن المعروف أن روجر باكون (١٢٦٧) الراهب الإنجليزي والعالم الشهير وكذلك دانتى كان كل منهما يعتقد

في أن تغيراً مفاجئاً سوف يطرأ على الكنيسة يؤدي بها إلى حالة أفضل وأحسن . وقد تنبأ باكون بأن كاهناً ورعاً سوف يقوم بهذا التغيير .

ويغلب على الظن أن معظم العرافين والمتنبئين الذين قالوا بهذه التنبؤات المتصلة بالكنيسة كانوا متأثرين بنبوءات عراف شهير ظهر في العصور الوسطى وكان له أثر كبير على غيره من المتنبئين ذلك هو العراف جوشم . Joachim

لقد توقف الملك ريتشارد قلب الأسد إبان حملة له على الأراضي المقدسة لمحاربة صلاح الدين الأيوبي ، في مدينة فيور من أعمال مقاطعة كلابريا بإيطاليا لاستشارة رجل كان يعد في ذلك الوقت أعظم منبئ ظهر منذ عهد الرسل . لقد كان هذا الرجل على جانب كبير من الورع والتقوى وصفاء النفس وكانت شهرته كمتنبئ قد عمت جميع العالم المسيحي . هذا الرجل هو جوشم وهو راهب بندكتيني انفصل عن طائفته وأنشأ له ديراً خاصاً به في فيور . وعلى الرغم من أن هذا الراهب قد تنبأ بأشياء كثيرة في غير صالح البابوية إلا أن الباباوات مع ذلك قد بسطوا عليه حمايتهم وجعلوه تحت رعايتهم . وكان هذا الراهب يقول إنه لم يمنح هبة الكشف عن الغيب إنما

منح هبة الفهم والإدراك . وهو يذكر في إحدى كتبه كيف أنه
تاه في ميدان التأمل والتفكير في ليلة عيد الفصح فشعر أن
شعاعاً من الضوء اللامع قد نفذ إلى أعماق نفسه وأن إلهاماً إلهياً
قد حل به فجعل كل أسرار الكتب المقدسة واضحة أمامه كما
كانت واضحة أمام الرسل والأنبياء .

لقد تنبأ جوشم هذا بالمسيح الدجال وأخبر ريتشارد قلب
الأسد أن هذا المسيح الدجال سوف يعتلي سريعا الكرسي
البابوي .

وبعد وفاة جوشم هذا أخذت الطبقة المثقفة من الناس
تستمع إلى الدروس التي تفسر فيها نبوءات هذا الراهب الكبير
إذ كانت هذه النبوءات تدرس كما يدرس الكتاب المقدس .
وقد ذكر جوشم في كتبه أن العصر الكبير الأول من تاريخ
العالم هو عصر الأب أي ما قبل العهد المسيحي أما العصر
الثاني فهو عصر الابن ويمتد حتى عام ١٢٦٠ للميلاد أما العصر
الثالث فهو عصر الطيف المقدس ويبدأ من عام ١٦٢٠
ويتضمن تغيرا وتطهيرا شاملا للكنيسة . وكان يرى أن الكنيسة
قد انغمست في الشهوات وغدت وكرا للصنوص ومن ثم
احتقر الناس رجال الدين .

وكانت هناك غير ذلك نبوءات كثيرة ضد الكنيسة يتداولها الناس في كل مكان وقد أفصح عنها كل من دانتي ومكيافلي في كتاباتهما . ولعل أبرز شخصية ظهرت بعد ذلك في ميدان التنبؤ بالغيب هي شخصية ساقونارولا الذي تنبأ بأشياء كثيرة تحققت كلها تقريباً . مثال ذلك أنه تنبأ بطرد أسرة ده مديسي الشهيرة من فلورنسه وقد تحقق ذلك . وتنبأ بالغزو الفرنسي لإيطاليا في عهد شارل الثامن ملك فرنسا وقد تحقق ذلك ، كما تنبأ أيضاً بدمار روما تدميراً تاماً بالنيران بسبب فسوق أهلها وهذا أمر لم يتحقق اللهم إلا إذا اعتبرنا نهب روما على يد ده بوربون بعد موت ساقونا رولا بتسع وعشرين سنة تحقيقاً لهذه النبوءة .

لقد كان هذا الراهب الدومينيكي العجيب يرى الرؤى الصادقة ويسمع الهواتف العلوية ، فقد شاهد في مساء الجمعة الحزينة من عام ١٤٩٢ رؤيا هي عبارة عن صليبين هائلين ورأى سيفاً يتدلى من السماء فوق إيطاليا وغير ذلك من الرؤى . وقد ذاع صيت هذا الراهب حتى أصبح المتسلط على أهل فلورنسه .

غير أن أعداءه وحاسديه قد أخذوا يتزايدون فكان أن

سجن وعذب واستخلص منه عن طريق التعذيب اعترافاً ينكر فيه ادعاءه أن له قوى تكشف عن الغيب فحوكم محاكمة صورية حكم عليه بعدها بالموت حرقاً . في الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ وبحضور مندوبين عن البابا اسكندر السادس الذي نعتة ساقونارولا بالشيطان جرد ساقونارولا من رداءه الكهنوتي وتلى عليه الحكم بالإعدام هو واثنين من أتباعه المقربين إليه . وقد شق الثلاثة وأحرقت جثثهم وهي معلقة في المشانق . ويعد ساقونارولا اليوم عند الكثيرين من القديسين والشهداء والمتنبئين الصادقين في نبوءاتهم .

وقد يكون ميشيل نستراداموس هو أعظم المتنبئين الذين ظهروا في القارة الأوروبية Michel Nostradamus وقد احتل هذا المتنبئ مكانة مرموقة لم يرق إليها أحد غيره من مشاهير القرن السادس عشر عصر النهضة الزاهر ، وكانت له قدرة عجيبة على التنبؤ بالغيب ، فما أن ذاع صيته في هذا الميدان حتى أخذت أوروبا كلها تتحدث عنه وأرسل إليه الملوك والأمراء يدعونه ليقرا لهم ما يخبئه لهم المستقبل من أحداث ، وحج العظماء إلى بلده سالون Salon من مقاطعة بروفانس بفرنسا ليكشف لهم ما خفي عنهم من أمور وأحداث .

لقد درس نستراداموس هذا الطب وكانت له مقدرة فائقة في معالجة المرضى الذين كانوا يقعون صرعى للطواعين التي كانت تجتاح أوروبا من حين لآخر إبان القرن السادس عشر حتى كثر حساده من الأطباء فأذاعوا عنه أنه يشتغل بالسحر والعلوم الخفية . والواقع أن نستراداموس كان يقضى معظم أيامه في الطبقة العليا من منزله وسط مجلدات ضخمة مكتوبة بلغات متعددة وحوله أدوات كثيرة مما يستخدمها المنجمون والسحرة كالأسطرلاب والمرايا السحرية . ويذكر نستراداموس نفسه أنه قد أحرق بعض الكتب المصرية القديمة بعد أن حفظ محتوياتها عن ظهر قلب وقد ورث هذه الكتب عن أجداده وكانت تحوى كثيراً من علوم المصريين والمجوس .

وقد زار نستراداموس كثيراً من البلاد الأوروبية واجتمع بمشاهير العلماء والمشتغلين بالكيمياء والتنجيم وتباحث وإياهم في شتى الموضوعات العلمية .

وحدث أثناء زيارته لمدن إيطاليا أن شاهد في إحدى القرى الصغيرة راهباً فرنسيسكياً يدعى فيلكس بيرتى Felix Peretti فما أن رآه حتى ركع نستراداموس أمام هذا الراهب بكل خشوع واحترام ولما سأله في ذلك الرهبان الآخرون أجابهم : إني أركع

أمام قداسه . غير أن الرهبان لم يهتموا بهذه النبوءة لأن يرقى هذا لم يكن يمتاز عنهم بشيء البتة ولكن هذا الراهب القروي قد أخذ يرقى المناصب الكهنوتية الواحد بعد الآخر حتى ولى العرش البابوي عام ١٥٨٥ ولقب بـ « سكتوس السادس »

وكان نستراداموس هذا ينشر تنبؤاته في شكل رباعيات شعرية وقد نشرت لأول مرة في عام ١٥٥٥ وتضمنت كثيراً من النبوءات التي تحققت على مر الأيام منها مقتل شارل الأول ملك انجلترا وثورة أوليفر كرومويل ومقتل لويس السادس عشر ملك فرنسا والثورة الفرنسية ومجيء نابليون بونابارت وغير ذلك من الأحداث العالمية الشهيرة .

وقد أصيب نستراداموس في أواخر أيامه بمرض الاستسقاء وثقل عليه المرض فاعتكف في بيته لا يرى أحداً من الناس إلا تلميذه الوفي شافني Chavigny وإثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين . وقد أوصى أن يدفن واقفاً في كنيسة الفرنسيين حتى لا يطاء أحد على عظامه .

وفي مساء اليوم الأول من شهر يولييه سنة ١٥٦٦ تركه تلميذه شافني بعد أن ألقى عليه تحية المساء والعبارة المألوفة : « إلى الغد يا أستاذ » ولكن نستراداموس هز رأسه بحزن وتمتم

قائلاً : فى الغد عند شروق الشمس سوف لا أكون موجوداً .
 وفى الصباح كان نستراداموس جثة هامدة فوق مقعده .
 ولقد بكاه أهل بلده طويلاً وكانوا يعتقدون أن نستراداموس
 لم يمت ولكنه اعتزل الحياة ليتابع دراساته ، ونقش على الحائط
 الذى يضم رفاته هذه الجملة : « لا تعكر سلام الموتى » ثم
 أضافت إليها زوجه : « هنا ترقد عظام ميشيل نستراداموس
 الشهير الوحيد فى رأى جميع البشر الذى يسجل بقلمه المقدس
 أحداث العالم المستقبل وفقاً لتأثير الكواكب » .
 ولقد توفى نستراداموس بالغاً من العمر اثنين وستين عاماً
 وستة شهور وسبعة عشر يوماً .

الفصل السادس الأحلام والتنبؤ بالغيب

لقد كثر الكلام عن الأحلام وعلاقتها بالتنبؤ بالغيب وانبرى
نفر من العلماء المبرزين لدراسة هذه الظاهرة العجيبة ووضعوا
فيها الكتب والمطولات وضمنوها كثيراً من الأحلام التي تحققت
عن آخرها .

ولعل أشهر من قام بهذه الدراسة هو الفلكي الفرنسي
الشهير « كامبل فلاماريون » في كتابه « لغز الحياة النفسية »
The Riddle of Soul Life إذ كان من المؤمنين بأن هناك رؤى
صادقة تتحقق عن آخرها في العالم المحسوس . ومن الأمثلة التي
أوردها في كتابه المذكور تلك الحادثة التي ذكرها على لسان
شاهدة معتمدة موثوق بكلامها إذ قالت :

« حوالي أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ وأعتقد أن
ذلك كان في يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرين من نوفمبر ،
كنت في ضيافة أسرة المستر دافيدسن في نيواورليانز ، وقد

حضر لزيارته نفر من الأصدقاء من بينهم مدام ثلتون وقد قصت على الحاضرين عدة أحلام رأتها في منامها وقالت أن هذه الأحلام قد تحققت عن آخرها ، ولكن الحاضرين لم يكونوا في مركز يسمح لهم بالتحقق من صدق ما ذكرته هذه السيدة . وبعد أن أفاضت في ذكر أحلامها التي تحققت سألتها المضيف :

إني أسألك يا مدام ثلتون هل رأيت في منامك حلماً يتصل بي ؟

فقالت : « إنني رأيت البارحة فقط يا مستر دافيد سن حلماً يتصل بك » .

وقد سألتها الحاضرون بلهفة أن تقص عليهم ما رآته في حلمها .

فقالت : « لقد رأيت في منامي أنني سوف أعود لزيارتكم لدعوة عاجلة وذلك بعد ستة أسابيع من اليوم . »

فقال المضيف : « إن هذا الحلم من السهل تحقيقه » ثم مال على أحد الحاضرين وقال : « أرجو أن تذكر لنا متى سيكون ذلك اليوم الموعد ؟ » وعند ذلك أخرج أحد الحاضرين

مفكرته وقال إنه سيكون في يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير
عام ١٨٧٢ .

« حسناً سوف نختبر جميعاً صدق أحلام هذه السيدة .
وعند ذلك تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « مهلاً أيها
السادة . إننى رأيت فى منامى أيضاً أننى عند ما دخلت البيت
وجدته خالياً وبحشت من المستر دافيدسن ولكنى لم أجده وأخيراً
رأيت وسط قاعة الاستقبال تابوتاً معدنياً كبيراً . وكان غطاء
التابوت محكماً ولم أر شيئاً آخر إلى جانب ذلك ولكنى أدركت
أنك مسجى داخل هذا التابوت » .

وعند ذلك انفجر المضيف ضاحكاً وشاركه فى ضحكته
جميع الحاضرين ثم وجه دافيدسن الكلام إلى زوجه متهمكاً :
« إننى أرجو منك تابوتاً غير معدنى لأننى لا أحب التواييت
المعدنية ، إنى أريد تابوتاً بسيطاً من الخشب » .

وقد وعدته زوجه بذلك ضاحكة وقالت إنها سوف تلبى
رغبته فى حالة ما إذا كانت ستخلفه .

ثم تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « إننى لم أشاهد سوى
سيدة واحدة فى قاعة الاستقبال فوقفت إلى جوارها . وكان
منقوشاً على غطاء التابوت ست ورود فضية . »

وقد ضحك الجميع أيضاً من هذه الحلية العجيبة ولكن مدام ثلتون ظلت على هدوئها وقالت : « ولقد عجبت أنا أيضاً عند ما شاهدت ذلك في الحلم » .

ولقد تفرقنا بعد ذلك بعد أن تواعدنا على أن نلتقي ثانية يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير كما جاء في حديث هذه السيدة . وحدث في اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٨٧٢ حادث محزن للمستر دافيدسن إذ دهمته قاطرة فأزهقت روحه .

وفي صباح اليوم التالي وضع جثمانه في تابوت . وقد رغبت أسرته في أن لا يرى أحد وجهه المشوه نتيجة لهذا الحادث . وقد آليت على نفسي أن أمكث إلى جوار هذا التابوت وظلت في مكاني حتى بعد أن أحكم غلق التابوت .

وقد حضرت مدام ثلتون إلى المنزل في اليوم الموعد فوجدت التابوت في قاعة الاستقبال وليس إلى جانبه سوى : فجاءت ووقفت إلى جانبي وظللنا نحن الاثنتان وقوفاً إلى جانب التابوت دون أن ننظر واحدة منا إلى الأخرى . وفجأة لمست مدام ثلتون يدي وأشارت إلى ست وردات فضية تزين غطاء التابوت المعدني فنظرت إليها متسائلة فتمتت قائلة : « ألا تذكرى الوردات الست الفضية التي رأيتها في منامي بوضوح ؟ »

وبعد ذلك بأسبوعين قالت لي أرملة المستر دافيدسن :

« ألا تذكرى ذلك الحلم العجيب إن كل شىء قد تحقق كما رأيت صديقتنا فى منامها حتى التابوت فأنى لم أنس فى حزنى وصية زوجى التى أوصانى بها . ولقد سألت الخانوتى عن السبب الذى من أجله أحضر هذا التابوت المعدنى على الرغم من طلبى إعداد تابوت خشبى فعلمت أنه لم يكن من الممكن العثور على تابوت خشبى بالمقاس المطلوب فلم يجد سوى هذا التابوت المعدنى فاضطر تحت ضغط الظروف إلى استخدامه . » ولقد قام المستر فلاماريون بالتحقق من صدق هذه الرواية بنفسه وكان لا يزال من شهودها الثلاثة عشر تسعة أشخاص على قيد الوجود فأكدوا جميعاً ما سمعوه من مدام ثلتون وما كان من تحقق حلمها عن آخره .

وهناك حادثة أخرى ذكرها هنريش كارل بروش Heinrich Karl Brugsch أحد علماء الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر فى مذكراته وهى تتصل بحلم رآه الحديو إسماعيل عام ١٨٧٥ حيث قال :

« لقد كنت فى طريقى إلى جوتنجن لتوديع أسرتى التى كانت تعيش هناك على أن أبحر بعد ذلك مباشرة من ميناء بريمن على ظهر إحدى السفن . وعندما كنت فى طريقى إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار الذاهب إلى بريمن تلقيت

برقية ففتحتها على الفور لأرى مضمونها قبل أن أركب القطار .
وقد كانت هذه البرقية قصيرة وحاسمة :

« إن الحديو يرجوك العودة إلى القاهرة على الفور » .
فأخذت أول قطار ذاهب إلى تريستا لأركب أول باخرة
ذاهبة إلى مصر . ولما كنت لم أقرأ أية صحيفة من الصحف منذ
أن غادرت جوتنجن فقد عجبت أشد العجب عند ما أخبرني
ربان السفينة التي ركبها إلى مصر أن آخر سفينة غادرت بريمن
وهي التي كنت عازماً على ركوبها لو كنت قد سافرت إلى بريمن
قد حدث بها انفجار هائل قتل وجرح الكثيرين من ركابها .
فشكرت الله على أن دعوتني إلى الذهاب إلى مصر قد أنجتنى
من شر كنت معرضاً له من جراء هذا الانفجار .

ولما وصلت إلى القاهرة ذهبت على التو لمقابلة الحديو
إسماعيل حسب أوامره وكنت متوقفاً أن أتلقى منه بعض التوجيهات
الخاصة التي كان يجب أن يوجهها إلى نفسه ولكنني لم أسمع
منه إلا أنه سعيد أن يراني سليماً معافياً وأنه ليس لديه ما يقوله
أكثر من ذلك .

لقد رأى الحديو أن يستدعيني عن طريق هذه البرقية
وذلك بسبب حلم رآه ذات ليلة جعله يطلبني على جناح السرعة

ولا حل بي شر يتربص بي » .

والواقع أن هناك كثيرين من الناس يرون الرؤى فتحقق كما رؤوها في منامهم الأمر الذي دعى الكثير من الفلاسفة والمفكرين إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة والإفاضة في تفسيرها . ولم يكن حظ فلاسفة المسلمين من هذه المسألة بقليل بل إنهم أفاضوا الكلام في الرؤيا الصادقة وجعلوا هناك صلة قوية بين الرؤيا الصادقة والتنبؤ بالغيب استناداً على القول بأن الله يطلع عباده على غيبه سواء أكانوا في يقظة أم في منام : وهم يذهبون إلى أن الحلم إذا تحقق في الواقع كان هذا الحلم عبارة عن رؤيا صادقة ، أما إذا لم يتحقق فهو عبارة عن أضغاث أحلام ووسوسة شيطان لا تقبل تأويلاً ولا تستحق اهتماماً وهذا هو ما عليه أكثر المفكرين المسلمين ،

وقد صنف الفلاسفة والمتكلمون الرؤيا على أصناف فقالوا إن بعضها ما يكون من وحى الله والبعض الآخر من إلهام الملائكة كما أن الرموز منها الذي يعوزه التعبير يكون من الملك أو من الأرواح فيما يقول البعض .

وقد جاء في الصحيحين عن النبي أنه قال :

« الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا

ما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام .

وقد عزي رجال الشرع الرؤيا الصادقة إلى الله القادر على كل شيء فهو يخلق في قلب النائم أو في حواسه الأشياء ، كما يخلقها في اليقظان وهو سبحانه يفعل ما يشاء فلا يمنعه من ذلك نوم ولا غيره وربما يقع ذلك في اليقظة كما يتراءى في المنام . وذهب آخرون إلى أن الرؤيا الصادقة تقع للمرء وهو نائم ، ذاهل العقل والحس معاً ، إلا أن النائم وإن ذهب عقله الذي به يتعقل ويفهم وحسه الذي به يدرك صور المحسوسات فإن نفسه تكون يقظة متبهة تقوى على التعقل والفهم وتقوم مقام الحواس من سمع وبصر ولمس ونحوه في نقل آثار الجزئيات . ذلك أن روح النائم تسرح في الدنيا وتمتد منبسطة خارج الجسد وإن لبث جزء منها على اتصال به فتدرك في النوم مكنونات الغيب المحجب .

وقيل إنها ترحل عن الجسد إلى عوالم الغيب فإن تيقظ النائم فجأة قبل أن تعود من رحلتها أدركه الجنون . وقيل بل تصعد الأرواح إلى السماء السابعة حتى تقف بين يدي الله ويأذن لها في السجود . فإذا سجدت بشر الطاهر منها بالغيب فيراه النائم بروحه ويتفهمه بقلبه .

أما الصوفية. فعندهم أن النفس من عالم المجردات والمعقولات
فهي تستطيع أن تدرك المدركات التي من جنسها إذا لم يشغلها
شاغل من علائق البدن فإذا قويت بالفضائل الروحانية وضعف
سلطان القوى البدنية اتصلت النفس بأبيها المقدس وبالنفوس
الفلكية وتلقت عنها المغيبات كما يقع لها هذا في يقظتها .

وفي الحديث النبوي : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولكن
لا يشعرون» .

وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ولكن الناس
يحسبون وهماً أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف
خلالها شيئاً من عالم الغيب وما يبصره بين النوم واليقظة أولى
بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس. واللوح المحفوظ مرآة
نقشت عليها المقادير بغير حروف ولو ظهرت تجاهها مرآة
أخرى لا تكشف فيها صور الأولى إلا إذا قام بينهما حجاب .
وليست المرآة الثانية إلا القلب والحجاب هو الشهوات والحواس .
ويتجلى هذا في اليقظة أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول وبذلك
تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ وتنكشف للنفس
آفاق المجهول ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم
حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانته ولكن الرؤيا

لا تقع لكل نائم ولا تجيء في كل نوم إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة . فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء .

و يختلف الصوفية في تقدير الرؤيا فهم يضعوها دون الولاية حيناً وفي مرتبتها أحياناً فهي عند بعضهم نوع من الكرامات التي تقع للأولياء . والنفوس التي تقوى على إدراكها متى عظمت وترقت في مجال الروحانيات أضحى صاحبها ولياً وهكذا يدرك في اليقظة متى قوى الأمر عنده — ما يدركه النائم في نومه ولئن كان هذا نادراً إلا أنه يقع لأهل الطريق ولا يشمل الناس جميعاً فإنهم يعجزون عن احتمال ملك الإلهام الذي يهبط على الأولياء أيقاظاً فيهبط على سائر البشر نياماً وإن جرت العادة فيما يرى البعض أن يسمى وحى الإلهام رؤيا إن وقع أثناء النوم وتخيلاً إن جاء إبان اليقظة .

ولعل ما ذكره ابن خلدون في هذا المقام يعد نموذجاً لهذا النوع من التفكير فقد ذكر في مقدمته :

« للعقل نطاق يحسن التفكير في مجاله ، إنه يدرك العلم الذي يستند إلى المشاهدة ، ويعتمد على التفكير النظري ،

هذه هي مدارك العلماء فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه
 ضل سبيلاً . ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من
 الإدراك فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر في الأنبياء ويتهيأ للأولياء
 ومع الناس نموذج منه يتبدى فيما يقع لهم من صادق الأحلام
 وهم نيام . واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير
 لأن في النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية
 إلى الملكية لتصير ملكاً بالفعل في لحظة من اللحظات
 وعندئذ تتجه إلى الملاء الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً .
 وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون
 بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحاني لاتصالهم بالمدارك الحسية
 الخيالية التي تؤدي إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية
 مما ينهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها فإذا ترقى النفس
 تجاوزت هذا المجال واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل
 الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى إدراك الحس فيتسع
 نطاق إدراكها بالفطرة حتى يتجاوز الأوليات التي يقف عندها
 الإدراك البشري الأول إلى فضاء المشاهدات الباطنية وتلك هي
 مدارك الأولياء أصحاب العلوم الدنية والمعارف الربانية ويظفر
 بها أهل السعادة في البرزخ بعد مماتهم . وقد ترقى النفس
 المفطورة على الانسلاخ من البشرية - جسمانياتها وروحانياتها -

إلى الملائكة من الأفق الأعلى لتصير في لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل ، فتشهد أهل الملائكة الأعلى في أفقهم وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى في تلك اللحظة وتلك هى نفوس الأنبياء في حال الوحي التى فطروا عليها ولم يظفروا بها صناعة واكتساباً .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية وتكون عندئذ أقل في الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن أو غيره . وهذا الاستعداد السالف يقوم في النفس ما دامت في البدن وهو على صنفين : صنف يتهيأ للأولياء وآخر عام في البشر جميعاً وهو الرؤيا الصادقة . أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة وهى أعلى الروحانيات . «

ونجد مثل ذلك عند الغزالي فهو يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم يقوم فيها إلهام الأولياء الذى يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحي النبوى قوياً بالقياس إلى وحي الرؤيا .

ويذهب الفلاسفة إلى أن الحواس تنقل للنفس صور

المحسوسات فتنشغل النفس بالتفكير فيها إبان اليقظة ، فإذا وقع النوم تعطلت الحواس عن تأدية وظيفتها فتفرغ النفس من هذا التفكير وتنصرف إلى ما وراء الحس من جواهر روحانية شريفة عقلية وهى اللوح المحفوظ عند رجال الشرع - وفيها تنقش صور الموجودات كلها ، فإذا اتصلت النفس انطبعت فيها بما تحمل هذه الجواهر من مكنونات الغيب ولا سيما ما كان يعنى النفس منها .

وقد تصدق الصورة الجزئية التى تقع للنفس من غير حاجة إلى تعبير ، وربما بدلت الخيلة بها مثلاً يعوزه التعبير ليتكشف عن حقيقة معناه . وهم يقولون بأن من عناية الله بالإنسان أن يقع الإنذار فى الرؤيا إذ المقصود به أن يستعد المرء للملاقاة المستقبل وينتهي لدفع شره ، هكذا أشار يوسف على ملك مصر بأن يستعد للسنين السبع المجذبة بعد أن رأى الملك فى منامه سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف مهازيل وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

على أنه لا يبعد أن يقع الإنذار عن الماضى والحاضر متى كان مجهولاً لنا وهو أكثر ما يكون فى الأمور المستقبلية التى يختص إدراكها بالقوى الفكرية الجزئية التى تفيد فى

معرفة الضار والنافع من مقبل الأمور .

والخلاصة أن مفكرى الإسلام قد انتهوا إلى أن للنيام القدرة على الاتصال بالعقل الفعال متى قويت الخيلة عندهم فإن أفرطت الخيلة في قوتها تيسر لهم هذا الاتصال إبان اليقظة وكان التنبؤ يقع هذا للأنبياء والواصلين من الأولياء .

ومهما يكن من الأمر فهناك كثير من الناس ممن يوثق في صدق رواياتهم قد رأوا في منامهم رؤى كثيرة تحققت في العالم المحسوس . وقد قيل إن أم الإمام الشافعى قد رأت في منامها بعد أن حملت به أن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق في كل بلد قطعة . فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذاً في مصر ينشر علمه في أكثر البلاد طولا وعرضاً فكان الأمر كما قالوا .

وذكروا أيضاً أن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فعبر أبوها رؤياها بموته وموت الرسول والفاروق عمر بن الخطاب ودفنهم في حجرتها جميعاً . وقد صح فيما بعد هذا التعبير .

وقد فاخر الشعراى — وهو من المتصوفة المشهورين — بوقوع كثير من الرؤى له . من ذلك أنه كان وصياً على أبناء

أخيه فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى في تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً في خلوته ليخرجوا منه فأدرك أنه أخطأ في أمره السالف وعدل عنه .

وكان إذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته وساورته الشكوك فيما سمع رأى في ليله من اغتیب يلبس البياض فيدرك كذب المغتاب .

وقد روى الرحالة لين Lane في كتابه «عادات وشيائل المصريين المحدثين» The Manners and Customs of modern Egyptians أن الإمام الشيخ المهدي قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة وهو الشيخ أحمد البهي — كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير فسمعه يورخ حياة الحسين ويعقب قائلاً إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسيني المعروف في القاهرة وكان البهي يعتقد غير ذلك فألمه ما سمع ولكنه لم يعترض على الشيخ احتراماً لشهرته وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس إنطلق إلى بيته وأقام الصلاة ودعا ربه — وهو جاث على ركبتيه — أن يريه رسول الله في رؤيا صادقة يعرف منها حقيقة هذه المسألة ، فلما استسلم للنوم رأى أنه في الطريق إلى زيارة المشهد الحسيني فلما دنا من قبته رأى النور يشع منها فدخل

المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه — بعد تبادل التحية — أن يقرئ رسول الله السلام ، فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالسا على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره فجهر بقوله . السلام عليك يا رسول الله وكررها ثلاث مرات والدمع يجري على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أدن مني فقاده الشريف وأجلسه في حضرة ، فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بني . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلا الرجل غبطة وطمأنينة واستأذن الرسول في أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير في درسه . فلما سمع الرسول قصته ، طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة فاستيقظ من نومه وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه الأمير . فلما بلغ الباب دقه بعنف أفزع سكان البيت . ولما دخل الفناء أخذ ينادي شيخه بأعلا صوته فلما علم الشيخ بصاحب الصوت أدهشه مجيئه في هذا الوقت المبكر وظن سوءاً . وأخذ البهي من فرط التأثر يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام أو يقبل يده كما جرت عادته معه .

وقص رؤياه منبثاً شيخه بأن الشريف الذى كان بالبواب هو الإمام على ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر . والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا فى زيارة الحسين . ولما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إني أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهى شاهدة على ذلك لأن رؤيا الرسول حق » .

هذا ولم يكن الاعتقاد فى الرؤى وفقاً على العرب أو المسلمين بل شاركهم فى هذا الاعتقاد كثير من الأمم القديمة . فقد كان الإغريق يرون أن الأحلام هى من فعل الإله زيوس كبير الآلهة . وقد ذكر هذا هوميروس فى إلياذته أكثر من مرة ، كما انتشر هذا الاعتقاد فى جميع بلاد الإغريق .

وكان للمصريين القدماء إله للأحلام هو « بس » Bess وقد نقشَت صورته على كثير من الوسائد التى يضع المصريون عليها رؤوسهم . وكان للبابليين أيضاً إله الأحلام هو الإله « ماخر » وكذلك كان لمعظم الشعوب القديمة آلهة خاصة للأحلام على اعتبار أن هذه الآلهة هى الباعثة على ما يراه النائم من أحلام .

وكان الحكام فى إسبرطة ينامون عادة فى معبد خاص

اعتقاداً منهم أنهم يرون الرؤى الصادقة إذا ناموا في ذلك
المعبد . وكان لهذه الرؤى أثرها المباشر في تسيير الأمور وتوجيه
سياسة إسبرطة . وقد بلغ من اعتقاد أهل أثينا في الرؤى أن
محكمتهم العليا كانت تأخذ بما تقرر الرؤيا من إدانة المتهمين أو تبرئتهم
كذلك كان أهل روما يستجيبون لما تشير به الرؤى . وهكذا
كانت الأحلام من الأمور التي شغلت بال الناس في مختلف
الشعوب منذ القدم كما كان التسليم بالرؤيا الصادقة جزءاً من
عقيدة أكثر المتعلمين والجهال على حد سواء حتى الوقت الحاضر .
ومما يتصل بهذا الموضوع إدراك المجانين والمصروعين للغيب
وقد قالوا في تعليل ذلك أن نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن
لفساد أمزجتهم في أغلب الأحوال ولضعف الروح الحيواني فيها
وبذلك تكون غير مستغرقة في الحواس ولا منصرفة إلى التفكير
في نقصها ولذلك فالمجنون يكون كالمبهوت الغافل عما يرى ويسمع
ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شيء من الغيب
فيجري على لسانه وهو فيما يشبه الذهول .

ومن هؤلاء أيضاً المرضى والمشرفين على الموت فقد يذكر
المريض أنه يرى ويسمع أشياء ولا شيء من ذلك في واقع الحس
وقد ردوا هذا إلى فعل الخيلة على اعتبار أنها مصدر الصور

الباطنة . وذكر الأطباء أن بعض المرضى يخبر بالغيب وبالأمور قبل وقوعها فيصدق قوله .

ويذكرون أن القتلى عند ما يشرفون على الموت يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب . ويقال إن بعض الملوك الظلمة قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلاً منهم إبان قتلهم على ما خفى عليهم وقد أنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة .

والمعروف على سبيل التحقيق أن الموت متى نزل بالبدن ذهب الحس وزال حجابهِ واطلعت النفس على ذاتها وعالمها وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب . وليس عجيباً أن يؤدي الموت إلى كشف الغيب فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بعينه الظاهرة بل يرى بالعين التي خلقت في كل قلب وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات . وبين القلب واللوح المحفوظ الذي نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة يقوم حجاب قد ينكشف في المنام أو اليقظة ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب إنما يكون بالموت كما يقول الغزالي في كتابه كيمياء السعادة .

الفصل السابع

موقف الفلاسفة من التنبؤ بالغيب

لقد سلم معظم الفلاسفة الأقدمين بالتنبؤ بالغيب وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً مع استثناء الفيلسوف اليوناني أكسانوفان فهو الوحيد الذى أنكر التكهّن بحذافيه مع تسليمه بوجود الآلهة . فقد كان الفيلسوف سقراط يعتقد بأنه يعمل ويتكلم تحت تأثير إلهام إلهي . وكان على يقين من أن إلهاً خيراً يعين الناس حين يكونوا في شك من أمر المستقبل ، فالإنسان لا يستطيع بعقله وحده أن يعرف على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه . لذلك كان سقراط يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ويحضض أصدقاءه على استشارة الوحي ولا سيما وحي دلفي . ومن هذا نرى أن سقراط كان يتشيع للتكهّن أو يرى بتعبير أدق أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة في الحالات الجدية الخطيرة أما في الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العلل التى تبرره فإن سقراط يرى أن استشارة الوحي في مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

أما أفلاطون فقد كان فن التكهّن عنده أجمل الفنون جميعاً وقد وردت في كتبه كثير من الفقرات التي تقرر اعتقاده في التكهّن بالغيب . وكان من رأى أفلاطون أن القوانين الحميلة المقررة لا ينبغي الإقدام على تغييرها ، فإن كان من الضروري إجراء تغيير فيها وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب وكل أنواع الوحي حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه .

وقد ظفر التكهّن بالغيب بمكان مرموق في الدولة أيام أفلاطون وقد عرض لبيان هذا في كتبه النواميس والجمهوريّة والمائدة وطهاوس التي يعرض فيها نظرية التكهّن عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هدوء النفس التام وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التي تعزى الإنسان .

أما الفيلسوف أرسطو فكان يعتبر التكهّن بالغيب الذي يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العياقة وملاحظة الطيور كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات وأن نبني آمالاً ، ومن

هنا كان في الإمكان قيام علم للأمل الممكن وهو يريد أن
 يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ المعلن الذي يقوم على أسباب
 ويستند إلى الاستقراء وحساب الاحتمالات . أما عن التنبؤ
 في الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه أنه لا يسهل علينا
 احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد في صحته . أما الرواقيون
 فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب .
 وكان فيثاغورس يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من
 أهل العياقة . ويدل موقف ديمقريطس إزاء التكهن على إسرافه في
 الاهتمام بالصفة الآلية في مذهبه فليس ثمة شيء عنده إلا الجوهر
 الفرد والحلاء وكل ما هو موجود وكل ما يقع ينبغي أن يفسر
 باتصال الجواهر الفردة . وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين
 الآلية . وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر
 منه حظاً في القدرة وأطول منه أجلاً تتألف من جواهر فردة
 إلا أنها جواهر لطيفة جداً تتحرك في الفضاء بسرعة خارقة .
 كانت تسمى في بعض الأحيان بالجن سواء أكانت خيرة
 أم شريرة . وكانت تلقى صوراً تراها أعين الناس وأصواتاً
 تصل إلى أذهانهم وبهذا يمكن تكشف المستقبل .
 وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء

المحيطة بنا فإن الأحلام تحمل أنباء المستقبل . وفي بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعترهم الجذب أن تهيأ لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكمل منها تكويناً . وإن كانت هذه الصور التي تبعث بها الجفن قد يشوبها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات في فصل الخريف كثيرة الأخطاء .

أما الذي عليه رأى أكثر الفلاسفة المسلمين فهو أن الله وحده هو علام الغيوب ولكن ليس معنى استئثاره بالغيب حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب ، بل إن الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب أو هي فطرة يجعلها في صفوة المؤمنين ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح .
فإن الله تعالى وإن استأثر بعلم الغيب إلا أنه يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه فيكون إدراكهم من خصائص النبوة . وقد يصل بعض المؤمنين إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً من علم الغيب . وهناك غير هؤلاء فئة ثالثة كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو حلول مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك فيدركون شيئاً من علم الغيب .

والسبب في هذه القدرة على إدراك الغيب تحرر النفس من
علائق البدن وانصراف المزاج عن موارد الحس فليس يمنع النفس
من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها في البدن والحواس
فإذا ما تجردت من هذه المحسوسات تطلعت إلى الذوات التي
فوقها في الملاء الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال
فتقتبس النفس منها علماً ومعرفة وعلى هذا جاز وقوع العلم
بالغيب لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس في يقظة أو منام .

والقرآن الكريم قد حصر العلم بالغيب في الله وحده قال
تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » وكرر هذا
المعنى في أكثر من آية ولكن الله يطلع على غيبه من يجتبه
من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي
من رسله ما يشاء » . ويقول تعالى كذلك « عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين
يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

ويتضح من هذه الآيات أن الله وحده هو العالم بالغيب
وأنه يجتبي من رسله من يطلعه على الغيب . ولكن أهل السنة
يرون أيضاً أنه في الإمكان إطلاع غير الرسل على الغيب
إطلائاً لا يفيد أكمل مراتب العلم أو قصر إطلاعهم على بعض

ميادين الغيب وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين .

ولقد أفاض ابن خلدون في مقدمته الكلام عن المدرجات الغيبية ويعتبر كلامه أنموذجاً للتفكير الإسلامى فى هذه الناحية لذلك رأينا أن نختم هذا الكتاب بخلاصة ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع على النحو التالى .

« إننا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس . ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع ، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان. لا يسع أحداً جحدتها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على

سبيل الكرامة معروفة . فالنفس الإنسانية ذات روحانية موجودة بالقوة بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والخزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وما تنزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهوى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة . ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك التي لها من ذاتها لابنوم ولا بكشف ولا غيرها وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت

عليه أولاً من الإدراك الجسماني ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي للإنسان على الإطلاق، مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملاء الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ، ثم يراجع الحس ما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به . وهذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي .

ولبيان أصنافه نقول إن الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالخصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناه ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها ، وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه . وربما

يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه . أما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس . ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ، ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة . وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين .

أما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس لهم ذلك الاتصال — فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة .

دار المعارف للطباعة والنشر

شفيق نجيب مترى وشركاه

المركز الرئيسى : ٥ شارع ماسبيرو بالقاهرة

يسرها أن تعلن إلى عملائها وأصدقائها الكرام وسائر القراء أنها قد عادت إلى القيام بتوزيع وبيع جميع مطبوعاتها بمحرفتها وذلك فى الجمهورية العربية المتحدة وفى سائر الأقطار .

وعليه يمكن الحصول على كافة المطبوعات مدرسية كانت أم ثقافية من كل الأماكن والجهات الآتية :

١ - المركز الرئيسى : ٥ شارع ماسبيرو بالقاهرة تليفون ٨١٢١٦٨

٢ - قسم التوريدات : ٩ شارع كامل صدقى بالفجالة » ٤٩٨٦٦

٣ - من فروعها الآتية :

فرعها بالفجالة : ٩ شارع كامل صدقى بالقاهرة » ٤٩٨٦٦

» بشبرا : ١٠٥ شارع شبرا بالقاهرة » ٤٩٨٦٦

» بالسيدة : ميدان السيدة زينب بالقاهرة » ٣١٦١٣

» بالظاهر : شارع الحميل بالظاهر بالقاهرة » ٤٩٨٦٦

» بالإسكندرية : ٢ ميدان التحرير بالإسكندرية » ٢٣٥٨٨